كتاب

الدلائل والاعتبار

على الخلق والتدبير

تأليف

الإمام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

مكتبة الكليات الأزهرية

دار النهضة الإسلامية

كتاب
الدلائل والاعتبار
على الخلق والتدبير

تأليف

الامام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

مكتبة الكليات الأزهرية

دار الندوة الإسلامية

أبـو سلـوم المعتــزلي

١٩٨٧ - ١٩٨٨

بيروت - لبنان

طبعة جديدة

مكتبة الكليات الأزهرية

القاهرة - ص. ب ٦٧ الأزهر (١١٦٧٥)

٩شارع الصنادقية - الأزهر

هاتف(٩٣١٢٩٦)

دار الندوة الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت : شارع مدام كوري هاتف : ٨١٠٨١٩ - ص.ب : ١٣٥١٢٥

بِسْمِ اللهِ آلرّحمن الرَّحيم

وصلى الله على محمد وآله وعلى جميع أنبيائه

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إن ناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء وزعموا أن كونها بأهمال لا صنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وفرشت أحسن فرش وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها.

فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته وصواب هيئته وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذي أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة وأشباههم من أهل الضلال.

فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ووقفه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها ان لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك. بل يجهد في نشره واذاعته وايراده على المسامع والأذهان لتقوى دواعي الإيمان وتخيب مكيدة الشيطان في تضليل الوهم محتسباً للثواب في ذلك واثقاً بعون الله تعالى وتأييده إياه.

فقد تكفلنا جميع ما وقفنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب والمعاني في ذلك بمبلغ علمنا في كتابنا وتوخينا إيضاح القول فيه وتنويره والإيجاز فيما شرحنا ليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ورجونا أن يكون في ذلك شفاء للناكر المرتاب وزيادة في يقين الموفق وبالله التوفيق. فأول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه. فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده. السماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر وكل شيء منها لشأنه وما يراد به. والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوانات مصرّفة في مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبر وتقدير ونظام. وإن الخالق له واحد هو الذي ألفه ونظم بعضه إلى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ولكنا ننصرف إلى فن آخر من دقايق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملائمة وفي ذلك توبيخ للقائلين بالاهمال والقائلين باصلين متضادين[1] لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالتضاير

(فكر في لون هذه السماء) وما فيها من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره إدمان النظر إلى الخضرة ما قرب منها إلى السواد. وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصرة الإطلاع في إجانة خضراء مملوءة ماء.

فانظر كيف جعل هذا الأديم أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد لتمسك الأبصار المتقلبة عليه فلا ينكى فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بعد التفكر والتجارب يوجد مفروغاً منه في الخلقة.

(فكر في طلوع الشمس وغروبها) لإقامة دولتي النهار والليل فلولا طلوعها

---

(١) الأصلان المتضادان هما الذكر والأنثى والحار والبارد أو الحركة والسكون أو الجنة والنار أو العلم واللوح أو طريقا الأعلى والأسفل اهـ من هامش الأصل.

البطل أمر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه. فالارب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الأطناب فيه. ولكن تأمل المنفعة في غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدو ولراحة أبدانهم وجموم حواسهم وإنبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء كالذي تصف كتب الطب من ذلك. ثم كان الحرص سيحملهم إلى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته في أبدانهم فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤا ولا قروا حرصاً على الكسب والجمع ثم كانت الأرض ستحمي بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت ملياً ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى الأفعال الطبيعية. وفي الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينوِّر الشجر ويهيج الحيوان للسفاد.

وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتتحلل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فيتهيأ للبناء والأعتمال. وفي الخريف يصفو الهواء فترفع الأمراض وتصح الأبدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال الطويلة إلى مصالح أخرى لو تقصّي ذكرها طال الكلام فيها.

(فكر في تنقل الشمس) في هذه البروج لإقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذي يضم الأزمنة الأربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ويستوفيها على التمام لأنه في هذا المقدار من دوران الشمس تدرك

الغلات والثمار وتنتهي إلى غاياتها من النضج والصلاح ثم يعود فيستأنف النشوء والنمو. فما أحسن ما قال الأولون الزمان مقدار الحركة ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل فبالسنة وأجزائها يكال الزمان وتوزن الأوقات من لدن خلق الله العالم إلى كل وقت وعصر وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك من أمورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة.

[فأما مسير القمر] ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة في معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لأن دوره لا يستوي في الأزمنة الأربعة ونشوء الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصار الشهر من شهور القمر يتنقل فيكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف.

(تأمل) شروق الشمس على العالم كيف دبر ان يكون فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف فيه لا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجبال لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ثم لا تزال تدور وتغشي جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فلا يبقي موضع من المواضع إلا أخذ بقسط من الإرب فيها.

(فكر في مقادير الليل والنهار) كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهي كل واحد منها إذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أرأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة أو مائتين ألم يكن في ذلك بوار ما على الأرض من حيوان أو نبات. أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة من العمل ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة فكان ذلك ينهكها أجمع ويؤديها إلى التلف.

وأما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يحترق ويجف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتى تموت جوعاً وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى

يعفن ويفسد كالذي نراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تقع عليه الشمس.

(فكر في إنارة القمر) والكواكب في ظلمة الليل والأرب في ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة ولهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون في الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال أو لشدة الحر وإفراطه بالنهار فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى كحرث الأرض وضرب اللبن وقطع الحطب وما أشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال إذا احتاجوا إلى ذلك وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس في العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ويتمنعوا من الهدوء والقرار فينهكهم ذلك وجعل في الكواكب جزءً يسيراً من الضوء ليسد مسداً إذا لم يكن قمر ويمكن فيه بعض الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التي يحتاج معها إلى النجاة والسعي في جوف الليل المظلم فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع المرء أن يزول عن مكانه. فتأمل لطف الحكمة في هذا التقدير حيث جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور للمآرب التي وصفنا ثم في النجوم مآرب أخرى فإن فيها علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة والغراسة والسفر في البر والبحر وأشياء مما تحدث في الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدي الساري في ظلمة الليل ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة مع ما في ترددها في هذه السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة وفي تصريف القمر خاصة في مهلّة ومحاقة وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لصلاح العالم.

ومما يدل عليه القياس أن هذه المصابيح تسير أسرع السير وأحثه وذلك أنها تدور في كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع إلى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في مقدار أربعة وعشرين ساعة. أفرأيت لو

كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت واضطربت في الجو وكذلك أيضاً لو أن ناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخروا بوجوههم فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر الأبصار وينكأ فيها النور وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها.

(فكر في هذه النجوم) التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا والجوزاء والشعري فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت. فصار ظهور كل واحد منها واحتجابه في وقت غير وقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته، فكما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً لضروب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الإعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معاً وذلك أنها لا تغيب ولا تواري أصلاً فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها إلى حيث شاؤوا وصار الأمران جميعاً على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة.

(فكر في النجوم) واختلاف سيرها ففرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير إلا سيراً ضعيفاً مجتمعة. وفرقة مطلقة تتنقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير بسيرين مختلفين أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق، وقد شبه الأولون هذه المطلقة بنملة تدب على رحى والرحا تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال فإن النملة في تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين إحداهما بنفسها متوجهة أمامها والأخرى مستكرهة مع الرحى تجتذبها إلى خلفها فليسأل الزاعمون أن النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال ومن غير عمد ما منعها أن تكون كلها راتبةً أو تكون كلها منتقلة فإن

الإهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن فهذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وليس بإهمال كما تزعم المعطلة. فإن قلت ولما صار بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلاً قلنا إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقل المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على أشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة بتنقلها في البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها.

وجملة القول أنها لو كانت بحالة واحدة لأختل نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل أن يقول أن كينونتها على حال واحدة يوجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا. ففي اختلاف مسيرها وتصرفها وما في ذلك من الإرب والمصلحة أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

(فكر) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقدير والوزن إلا لما في اختلاف النهار والليل وهذه الأزمان الأربعة من السنة على الأرض وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذي بيّنا ولخصنا آنفاً وهل يخفى على ذي لب أن هذا تقدير مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم.

فإن قلت أن هذا شيء أتفق ان يكون هكذا فما يمنعك أن تقول هذا في دولاب تراه يدور لسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدراً بعضها تلقاء بعض على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وبماذا كنت تثبت هذا القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك. أفتنكر أن تقول هذا في دولاب خسيس مصنوع بحيلة تصيره لمصلحة قطعة من الأرض أنه كان بلا صانع ومقدر وتقدم على أن تقول هذا الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر لصلاح جميع الأرض وما عليها أنه شيء أتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك كما تعتل

هذه الآلات التي تتخذ لرفع الماء وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة في صلاحه ولو تخلفت عنهم مقدار عام أو بعض عام كيف تكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء أفلا ترى كيف كفى الناس هذه الأمور الجليلة التي لم يكن لها فيها عندهم حيلة فصارت تجرى على مجاريها لا تعتل ولا تختل منافعها ومصالحها ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه.

(فكر) في هذا الحر والبرد وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال لإقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيها من المصالح ثم هما بعدُ دباغ الأبدان عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت الأبدان وانتكثت قواها وانتقضت في أسرع مدة. (ثم فكر) في دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فإنك تجد أحدهما ينتقص شيئاً بعد شيء والآخر يتزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول أحدهما في الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها كما أن امرأً لو خرج من حمام حار إلى موضع مفرط البرد لضره ذلك وأسقم بدنه فلم يكن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولم يجري ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا تدبير المدبر في ذلك.

فإن زعمت أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس في إرتفاعها وانحطاطها سألت أيضاً عن العلة في إبطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط فإن اعتللت في الإبطاء ببعد ما بين المشرقين وسئلت عن العلة في ذلك فلا تزال هذه المسألة ترتقي معك إلى حيث رقيت من هذا القول حتى تستقر على العمد والتدبير. لولا الحر لما كانت هذه الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبةً ويابسة ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت وما يردّ في الأرض أفلا ترى ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع عظم غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها فاعتبر بهذا في كثير من الأمور التي تمض الناس وتخالف أهوائهم وهي من التدبير الحكيم في

مصلحتهم.

فتأمل حكمة الباري في التدبير في خلق النار على ما هي عليه فإنه لم يكن يصلح أن تكون مبثوثة كالنسيم والماء إذاً كانت تحرق العالم بما فيه ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين لعنايتها في كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة في الأجسام الحافظة لها تستبعث عند الحاجة إليها فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها ثم تخبوا فلا هي تمسك أبداً بالمادة والحطب فتعظم المؤنة في ذلك ولا هي تظهر مبثوثة في العالم فتحرق كلما هي عليه بل هي على هيئة وتقدير اجتمع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم في النار خلة أخرى وهي أنها مما خص به الانسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل في معاشه.

فأما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر أن يكون هكذا خلقت للانسان كف وأصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها أعينت بالصبر على الجفا والخلل في المعاش لكيلا ينالها من فقد النار ما ينال الانسان. وانبهك من مصالح النار على خلة صغير قدرها عظيم موقعها وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة من في القبور. فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ أو ينسخ في ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل فاحتاج إلى أن يعالج ضماداً أو سفوفاً أو شيئاً مما يستشفي به. فأما منافع النار في نضج الأطعمة ودفء الأبدان وتجفيف أشياء وتحليل أخرى وأشباه هذا فإنه أكثر من أن يحصي وأظهر من أن يخفي حسبك بهذا النسيم المسمي هواء عبرة وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشيء منه ومن خارج بما يباشر من روحه وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤديها من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الأراييح ينقلها من موضع إلى موضع ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يعتقبان على العالم لصلاحه ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروّح عن

الأجسام وتزجي السحاب من موضع إلى موضع ليعم نفعه وتركمه حتى يستكثف فيمطر ويغيضه حتى يستجف فتنفش وتلّقح الشجر وتسيّر السفن وتذري الأطعمة وتبرد الماء وتشب النار وتجفف الأشياء الندية. وفي الجملة أنها تحي كل ما على الأرض فإنه لولا الريح لذوى النبات وموّت الحيوان ووخمت الأشياء وفسدت. الست تري ركود الريح إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتي على النفوس وتمرض الأصحاء وتنهك المرضى وتفسد الثمار وتعفن البقول ويعقب الوبا في الأبدان والآفة في الغلات. ففي هذا بيان أن هبوب الريح أكثر الأيام من التدبير الحكيم في صلاح هذا الخلق.

وأنبئك عن الهواء بخصلة أخرى فإن الصوت فيما ذكرت الحكماء أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القراطيس لأمتلأ العالم منه حتى يكربنا ويقدحنا ونحتاج في تبديله والاستبدال به إلى أكثر مما نحتاج إليه في استبدال القراطيس لأن الذي يلغي من الكلام ولا يكتب أضعاف ما يكتب فجعل الخلاق العليم هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ريثما يبلغ حاجتنا ثم يمحي فيعود جديداً نقياً بلا كلفة منا ولا عزم ويحمل ما حملناه أبداً بلا انقطاع.

(فكر في خلق هذه الأرض) على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكدة لتكون وطاء ومستقراً للأشياء ويتمكن الناس والأنعام من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والأتقان لإعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والحدادة والصياغة والحياكة بل كانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا إلى ترك منازلهم والهرب عنها. فإن قلت ولم صارت الأرض تزلزل (قلنا) إن الزلزلة وما أشبهها ترهيب يرهب بها الناس ليرغبوا وينزعوا عن المعاصي وكذلك ما ينزل بهم من البلايا في أبدانهم وأموالهم من نقمة ومصيبة وقحط تجري في التدبير إلى ما فيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم أن

صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعدله شيء من أمور الدنيا وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان فيه صلاح لعامة أو خاصة ثم أن الأرض في طباعها باردة يابسة وكذلك الحجارة وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة أفرأيت لو أن اليبس أن أفرط على الأرض قليلاً حتى تكون حجراً صلداً أكانت تكون تنبت هذا النبات الذي فيه حياة الحيوان أو كيف كان يمكن فيها حرث أو خضرة أو بناء فلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للأعمال. ومن التدبير الحكيم في خلقة الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب وما كان ذلك إلا لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض إلى البحر آخر ذلك فكما يرفع أحد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض فمنع الناس من أعمالها وقطع الطرق والمسالك.

[أنظر إلى هذه الجبال] المركومة من الطين والحجارة التي قد يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليه والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك أن الثلج يسقط عليها فيبقي في قللها لمن يحتاج في القيظ إليه ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل. ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى أن يكون فيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه.

(فكر في هذه المعادن) وما يخرج منها من الجواهر المختلفة الألوان كمثل الجص والكلس والجير والجبصين والزرنيخ والزاج والمرتك والتوتيا والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزئبق والنحاس والرصاص والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم ومصالحهم وكيف اختلفت طبائعها وألوانها وأحوالها

فمنها ما هو سم قاتل ومنها ما ينفع من السم ويقطعه ومنها ما يقويه ويزيل في فعله فهل يخفى على ذي عقل أن هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته إليها.

(ثم فكر في عزة هذا الذهب) والفضة وقصور حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض في العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات والأتاوة تجبي للسلطان والذخر تذخر للأعقاب وقد أعطى الناس مع هذا صنعة الشبة من النحاس والزجاج من الرمل وما أشبه ذلك مما لا مضرة فيه. فأنظر كيف أعطوا إرادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه. أخبرنا أناس ممن يزاول المعادن أنهم أوغلوا في بعضها فانتهوا إلى موضع رأوا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك وادٍ عظيم يجري متصلاً بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة في عبوره ثم عادوا يطلبونه فلم يقفوا عليه فانصرفوا آسفين.

(فكر) في هذا من تدبير الخالق فإنه أراد جل ثناؤه أن يرى العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم في ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الطريف يحدثه الناس من الأواني والأمتعة فما دام عزيزاً قليلاً فهو نفيس جليل آخذ للثمن فإذا فشا وكثر في أيدي الناس سقط عندهم وخست قيمته وفي هذا مصداق قول القائل أن نفاسة الأشياء من عزتها.

(فكر) في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الأربعة ليتسع الناس بما يحتاج إليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الأنس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أعشابهم وأحطابهم والعقاقير العظيم موقعها منهم والمعادن الجسيم غناؤها عنهم ولعلك تنكر هذه الفلوات الخالية والقفار الموحشة فتقول ما المنفعة فيها أفنسيت أنها مستكنّ هذه الوحوش ومحالها

ومرعاها ثم فيها متنفس ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم فكم من بيداء سملق(١) قد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الانسان إليها وحلولهم فيها ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن كان في حصار ضيق لا يجد مندوحة من وطنه إذا حزبه أمر يضطره إلى الانتقال عنه وكذلك الماء لولا تدفقه وجريانه في العيون والأودية والأنهار لضاق عما يحتاج الناس لشربهم وشرب أنعامهم ومواشيهم وسقي زروعهم وأشجارهم وأصناف غلاتهم وشرب ما يرده من الوحش والطير والسباع ويتقلب فيه من الحيتان وذوات الماء وهكذا الهواء أيضاً لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الأنام من الدخان والبخار الذي يتبخر فيه ولعجز عما يحول إلى الضباب والسحاب أولاً فأولاً.

والنار أيضاً كذلك فإنها وإن لم تكن مبثوثة في كل مكان فإنها عتيدة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليها منها أنها مخزونة في الأجسام للسبب الذي ذكرنا آنفاً.

وأذكرك من منافع الماء خلالاً أنت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فإن سوي الأمر الجليل المعروف في عنائه في إحياء جميع ما على وجه الأرض من حيوان أو نبات به تمزج الأشربة فتلين وتعتدل وتطيب لشاربيها وبه ترحض الأبدان والأمتعة من الدرن الذي يغشاها وبه يبل التراب ويصلح للاعتمال به. وبه يكف عادية النار إذا اضطرمت وأشفى الناس منها على الهلاك والمكروه وبه يسيغ الغاص ما غص به فينجو من الموت وبه يستحم التعب الكال فيجد الراحة في أوصاله إلى أشباه هذا من المآرب التي يعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار فقلت ما الأرب فيه فاعلم أنه مسكن ومضطرب لما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحار ومعدن اللؤلؤ والمرجان والياقوت والعنبر وأصناف شتى تستخرج من البحر ومن سواحله منابت العود واليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم بعده هو مركب للناس ومحمل لهذه

---

(١) السملق كجعفر القاع الصفصف اهـ قاموس.

التجارات التي تحمل من البلدان البعيدة كما يجلب من الصين إلى العراق ومن العراق إلى الصين وان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وأيدي أهلها لأن أجرة محملها كان يجاوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها والآخر انقطاع معاش من يجلبها ويتعيش بفضلها.

(فكر في نزول المطر) على الأرض والتدبير فيه فإنه جعل ينحدر عليها من أعلا ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ولقل ما يزرع من الأرض ألا ترى الذي يزرع سيحا أقل من ذلك والأمطار هي التي تطبق الأرض وبها تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة وبها يسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة بسياق الماء من موضع إلى موضع وما يجري بينهم في ذلك من التشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء.

ثم إنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور في قعر الأرض فيرويها ولو كان ينسكب انسكاباً كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رفيقاً فينبت الحب المزروع ويحي الزرع القائم ثم في نزوله أيضاً مصالح أخرى فإنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرفان إلى أشباه هذا من المنافع فيه.

(فإن قلت) أو ليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه أو برد يكون فيه تحطم الغلات أو بحثورة يحدثها الهواء فيولد كثيراً من الأمراض في الأبدان والآفات في الغلات (قلنا) بلى قد يكون ذلك في الفرط لما فيه صلاح الانسان بكفه عن ركوب المعاصي والتمادي فيها فتكون المنفعة له فيما يصلح له من دينه أرجح مما عسى أن يرزأ في ماله.

(فكر في المطر والصحو) كيف يعتقبان على العالم لما فيه صلاح ولو دام واحد

منهما عليه كان في ذلك فساده ألا ترى أن الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخثر الهواء[1] فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك. وأن الصحو إذا دام جفت الأبدان وتصوح النبات ويبطىء نضج الثمار وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض فإذا تعاقبا على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت.

(فإن قلت) ولم يكون في شيء منها مضرة البتة قلنا ليمض ذلك الانسان ويؤلمه بعض الألم فيرعوى وينزع عن المعاصي فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية الكريهة المرة المنيعة لتقوم طباعه وتصلح ما فسد منه كذلك هو إذا طغى وأشر احتاج إلى ما يمضه ويؤلمه بعض الألم ليرعوى ويقصر عن بعض مساويه وينتبه على ما فيه حظه ورشده.

ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن ذلك سيعظم عندهم ويذهب له به الصيت والذكر فأين ذلك من مطر واحد يعم البلاد وقيمته ما يزيد في الغلات من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها أفلا ترى المطرة الواحدة ما أكثر قدرها وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عافت أحدهم عن الحاجة لا قدر لها فتذمر وتسخط ايثاراً للخسيس قدره على نفعه العظيم.

(فكر في هذا النبات) وما فيه من ضروب المآرب الثمار للغذاء والأتبان للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من أعمال النجارة واللحاء والورق والزهر والأصول والفروع والصموغ لضروب من المنافع. أفرأيت لو كنا نجد الثمار التي منها نتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينبت على هذا السوق والأغصان الحاملة لها كم كان سيدخل علينا من الخلل في معايشنا وهل كانت طيبة

---

(١) القاموس الخثر محركة العكر.

إذا أخذناها في الأرض فالتدبير في كونها على ما هي عليه بيّن النفع والحكمة. وأن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع في الحطب والحشيش والأتبان وسائر ما عددنا عظيم موقعها جليل فقدها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظرة ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه.

(ثم فكر في هذا الربيع) الذي جعل في الأرض حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مئة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن تكون الحبة تأتي بحبة مثلها فلم صارت تريع هذا الريع كله إلا ليكون في الغلة متسع لما يردّ في الأرض من الحب ومما يقوّت الزارع وغيره إلى إدراك زرعه ألا ترى أن الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطى أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم إلى إدراك زروعهم. فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذلك الشجر والنخل يريع الريع الكثير فإنك ترى الأصل الواحد حوله من الشكل أمر عظيم فلم كان ذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في الأرض ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما أمكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس ثم كان أن أصابته آفة انقطع أصله فلم يكن منه خلف.

(تأمل نبات هذه الحبوب) من العدس والمج والدجر والجرجير وما أشبه ذلك فإنها تخرج في أوعية شبه الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه.

فأما البرد وما أشبهه فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السفا ليمنع الطير منه. فإن قلت أو ليس قد ينال الطير منه على حال من البر والحبوب قلنا بلى لعمري وعلى هذا قدّر الأمر فيها لأن الطير أيضاً خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله له فيما يخرج من الأرض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لكيلا يتمكن الطائر منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد الفاحش فإنه لو كان الحب يصاب والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكب

عليه حتى ينشفه أصلاً فكان يعرض من ذلك أن يبشم الطير فيموت ويخرج الزارع من زراعته صفراً فجعلت هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه شيئاً يسيراً ويتقوت به ويبقى أكثره للانسان لأنه أولى به إذا كان هو الذي طرح فيه وسقاه وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطائر.

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لو كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم تكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض لينزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها التي هي لها كالأفواه الملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها. ألم تر إلى عمد الفُسطاط والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض وممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف.

فانظر إلى حكمة الخلقة كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحكمة التي تستعملها الصناعة في ثبات الفساطيط والخيم متأخرة لأن خلق الشجر قبل صناعة الفساطيط والخيم[1] ألا ترى أن عمودها ودعائمها وعيدانها من الشجر فيحق ما قال الأولون (الصناعة تحكي الطبيعة).

تأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً رقيقاً معجباً لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة في عام كامل ولا احتيج فيه إلى آلات وحركة وعلاج وكدح فصار يأتي منه في أيام قلائل من

---

(١) العبارة في كتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالي هكذا فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته ا هـ وهي أو خبر واصل.

الربيع ما يملأ الجبال والسهول وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا الارادة النافذة في كل شيء. وأعرف مع ذلك العلة في تلك العروق فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة بمنزلة العروق المبثوثة في البدن لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه وفي الغلاظ أيضاً معنى آخر فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها لكيلا تنتهك وتتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب فالطبيعة وإن كانت تمثل بالصناعة فإن الصناعة هي التي تشبه الطبيعة.

(فكر في هذه العجم والنوى) والعلة فيه فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغراس إن قام دون الغرس عائق كما قد يخزن الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة إليه في مواضع شتى فإن حدث على الذي في بعض المواضع منه حدث وجد في آخر. ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت وتفسخت وأسرع إليها الفساد وفي بعضه حب يؤكل ويتسخرج دهنه فيستعمل في ضروب من المصالح.

وإذ قد تبين لك موضع الأرب من العجم والنوي ففكر الآن في هذا الذي يخرج فوقه من المأكل الذي يجده فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة ما العلة فيه ولماذا يخرج بهذه العلة[1] وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السرو والدلب والطرفا وما أشبه ذلك فلم صار يخرج وفوقه هذه المطاعم اللذيذة إلا ليستمتع بها الانسان وينال منها بعض الأنعام والهوام.

(فكر في ضرب من التدبير في الشجر) فإنك تراه يموت في كل سنة موتةً فتحتبس الحرارة الطبيعية في غوره وتتولد مواد الثمار ثم تحيا وتنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع كما تقدم إليك أنواع الأخبصة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد

---

(١) هكذا ولعل الصواب بهذه الهيئة كما يتبادر من العبارة في كتاب الحكمة للغزالي.

واحد فترى الأغصان في الشجر تلقاك بالثمر حتى كأنها تناولكها عن يد وترى الرياحين تلقاك في أفنانها كأنها تحييك بأنفسها. فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم. وما العلة فيه إلا تفكيه الانسان بهذه الأنواع أفلا تعجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

(فكر في خلق الرمانة) وما ترى فيها من أثر العمد والتدبير فإنك ترى فيها كأمثال التلال من شحم مركوم من نواحيها وحب مرصوف رصفاً كنحو ما ينضد بالأيدي وترى الحب مقسوماً أقساماً كل قسم منها مقسوم بلفايف من حجب منسوجة أعجب نسيج وألطفه وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير في هذه الصنعة أنه لم يجز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء ألا ترى أن أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ثم لف الحب في تلك اللفايف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب وغُشيَ فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحفظه من الآفات فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة وفيه أكثر من هذا لمن أراد الأطناب والتذرع في الكلام ولكن في هذا الذي ذكرنا منه كفاية في الدلالة والعبرة.

(فكر في حمل اليقطين) الضعيف مثل هذه الثمار الثقال كالدبا والقثاء والخربز وما في ذلك من التدبير فإنه لما قدر أن تحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض ولو كان منبسطاً قائماً كما ينتصب الزرع والشجر لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها. فأنظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل من القرع والبطيخ مفترشاً على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها هرة متمددة قد اكتنفها أجزاؤها لترضع منها فانظر كيف صارت هذه الأصناف توفي في الوقت المشاكل لها من حمارة الصيف ووقده الحر فتلقاها الطبيعة بانشراح وتشوق إليها ولو كانت توافي في الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً منها مع ما يكون منها من المضرة للأبدان ألا ترى أنه ربما أدرك شيء من القثاء في الشتاء فامتنع الناس من أكله إلا الجشِع الذي لا يمتنع من أكل ما يضره ويستوخم مغبته.

(فكر في خلة تجدها في النخل) فإنه لما صار منها إناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيها ذكور تتلقح فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي تلقح الأناث لتحمل وهو لا يحمل.

تأمل خلقة الجذع فإنك تراه منسوجاً نسجاً من خيوط ممدودة كالسدي وأخرى معترضة كاللحمة كنسج ما ينسج بالأيدي وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوان الثقيلة وهبوب الرياح العواصف إذا كان نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه إذا كان جذعاً فكذلك ترى في الخشب منه شبه النسج فإنك ترى بعضها متداخلاً بعضها طولاً وعرضاً[1] كتداخل أجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحصفاً كالحجارة لم يكن أن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالأبواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك.

ومن جسيم المصالح في الخشب أنه يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا وليس كلهم يعرف خلاله والنفع فيه فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والأطواف تحمل أمثال الجبال من الحمولة وإنى كان ينال الناس هذا المرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد بل كانت ستعظم المؤنة عليهم في حملها حتى تلقي كثيراً منها في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسيراً وجوده.

(فكر في هذه العقاقير) وما خص به كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج وهذا ينزف المرة السوداء مثل الأفيتمون وهذا ينقي الريح مثل السكبينج وهذا يحلل الأورام مثل الرازيانج وأشباه هذا من أفعالهم. فمن جعل هذه القوى فيها الأمن خلقها للمنفعة ومن فطّن الناس لها إلا من جعل هذا فيها ومتى كان يوقع على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وُهب الانسان فطنة لهذه الأشياء بذهنه

---

(١) هكذا ولعل الصواب بعضها متداخلاً طولاً وبعضها عرضاً.

ولطيف رويته فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض البهائم تتداوى من جراحة أن أصابته ببعض العقاقير فتبرأ وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم وأشباه ذلك مما يذكر في كتب الطب والطبيعة.

ولعلك تشك في هذا النبات النابت في الصحاري حيث لا أنس ولا أنيس تظن أنه فضل لا حاجة إليه وليس كذلك بل هو طعم لهذه الوحوش وحبة علف الطير وسوقه وأفنانه حطب يستعمله الناس وفيه بعد أشياء يعالج بها الأبدان وأخرى يدبغ بها الجلود وأخرى يصبغ بها الامتعة وأشباه هذا من المصالح. الست تعلم أن من أخس النبات وأحقره هذا البردي والخلقا وأشباهه وفيه مع هذا ضروب من المنافع فقد يتخذ منه القرطاس الذي يحتاج إليه الملوك والسوقة والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منها الغلف التي توقي بها الأواني يجعل حشواً بين الظروف في الأسفار كيلا يعيب ولا يتكسر وأشباه هذا من المآرب في صغير الخلق وكبيره وذوي القيمة منه وما لا قيمة له. وأخس من هذا وأحقر الزبل والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً وموقعها من البقول والزروع وجميع الخضر الموقع الذي لا يعدله شيء حتى أن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه أنه ليست منزلة الشيء في العلم على حسب قيمته في السوق بل هما قيمتان مختلفتان لسوقين مختلفين وربما كان الخسيس في سوق الكسب نفيساً في سوق العلم فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته.

فكر في بنية أبدان الحيوان وتهيئتها على ما هي عليه فلا هي صلاب كالحجارة إذا كانت لا تنثنى ولا تتصرف في الأعمال ولا هي على غاية اللين والرخاوة إذا كانت لا تتحامل ولا تستقل فجعلت من لحم رخو ينثنى بتداخله عظام صلاب تمسكه وعصب وعروق تشده ونظم بعضه إلى بعض ثم غلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله.

ومن أشباه ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العيدان ويلف عليها الخرق وتشد بالخيوط ويطلي فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام والخرق

بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب والعروق والطلى بمنزلة الجلد. فإن جوزت أن يكون الحيوان الحي المتحرك حدث بالإهمال أو من غير صانع فجواز ذلك أولى في هذه التماثيل الميتة وإن أغناك هذا في التماثيل ففي الحيوان أحرى أن يتعذر عليك.

وفكر بعدها في أجسام الأنعام فإنها حين خلقت كما خلقت أبدان الأنس من اللحم والعظم والعصب أعطيت أيضاً السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته فإنها لو كانت عميا صماً لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من مآربه ثم منعت الذهن والعقل لتذل للانسان فلا تمتنع عليه إذا كدها الكد الشديد وحملها الثقيل ولعلك تقول أنه قد يكون للانسان عبيد من الأنس يذلون ويذعنون بالكد الشديد وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن فنقول في جواب ذلك أن هذا الصنف في الناس قليل فإما أكثر الناس فلا يذعنون بما يذعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك ولا يفون بما يحتاج إليه منه ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذا العمل بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال لأنه يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة أناس فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل بشيء من الصناعات والمهن إلى ما كان سينالهم من التعب الفادح في أبدانهم والضيق والنكد في معايشهم.

فكر في خلقة هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وتهيئتها على ما فيه صلاح كل واحد فالأنس لما قدر أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والنجارة والحياكة والجزارة وما أشبه ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ تتمكن من القبض على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات. وآكلات اللحم لما قدر أن يكون معاشها من الصيد خلقت لها أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات. وآكلات النبات لما قدر أن تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم لينطبق على الأرض ويتهيأ للركوب والحمولة.

تأمل التدبير في خلقة آكلات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات أسنان حداد وبراثن شداد وأفواه واسعة فإنه لما قُدِّر أن يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك وأعينت بسلاح وأدوات تصلح للصيد فكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيأة لفعلها لو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم ولو كانت الصباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه أعني السلاح الذي به تصيد وتتعيش. أفلا ترى كيف أعطي كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه أنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الأنس فمن أجل أنه ليس عند امهاتها ما عند أمهات البشر من الترفق والعلم والتربية والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها. وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كمثل الدراج والدجاج والقبج يدرج ويلقط حين ينقات عنها البيض[1]. فأما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض به كمثل فراخ الحمام والهام والحمر فجعل في الأمهات فضل عطف فصار تمج الطُعم في فيه بعدما توعبه حواصلها ساعة ليلين ويسهل قبول الفرخ ولا تزال تغذوه حتى ينهض ويستقل بنفسه وكل أعطي بقسطه من التدبير الحكيم.
أنظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً ليتهيأ للمشي ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن الماشي ينقل ببعض قوايمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحداً ويعتمد على واحد وذو الأربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين من خلاف لأن ذا الأربع لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كما لا يثبت السرير وما أشبهه على قائمتين من أحد جانبيه على انه ليس في السرير روح والروح حمل الحيوان فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى الأخرى من مآخيره ويقر الأخيرتين أيضاً من خلال فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى.

(١) في القاموس النقت استخراج المخ ا هـ مصححه.

أما ترى كيف يذل للحمولة والطحن وهو يرى الفرس مودعاً منعماً والبعير الذي لا يطيقه عدة رجال لو استعصي كيف ينقاد للصبي. والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه فيحرث الأرض به والفرس الكريم يركب بالسيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه وكيف يتصرف في الكر والفر والنأي والبعد ورد طوع عنانه وأقحمه على السيوف لغشيها[1] والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو تفرقت الغنم فأخذت كل واحدة منها في ناحية لم يلحقها وكذلك جميع الأصناف المسخرة للانسان فبم كانت ذلك إلا بأنها عدمت العقل والروية فإنها لو كانت تروّى في الأمور كانت خليقة أن تلتوي على الانسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه والغنم على راعيها وأشباه هذا من الأمور وكذلك هذه السباع لو كانت ذوات عقل وروية فتواردت على الناس كانت خليقة أن تجتاحهم فمن كان يقوم للأسد والذئاب والنمور والضباع والدببة والهوام والحيات لو تعاونت وتظاهرت على الناس.

ألا ترى كيف حجر ذلك عنها فصارت مكان ما كان يخاف من إقدامها ونكايتها تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ثم لا تظهر ولا تنتشر في طلب قوتها إلا بالليل فهي مع عداوتها وصولتها كالخائفة للأنس بل هي مقموعة ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم مسالكهم.

أما ترى الكلب وهو كبعض السباع العادية كيف يتوقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الدعار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع والعطش فلم طبع الكلب على هذا الألف والمحبة للانسان إلا ليكون حارساً للانسان حافظاً لماله في أوقات غفلته. ثم أنه حين جعل حارساً للانسان أعين بأنياب ومخالب ونباح هائل ليذعر منه السارق والمريب ويتجنب المواضع التي تحميها كلاب وله شجاعة لا تثنيه وصبر لا يخونه وسعي يلحق به الضياء وشم

---

(١) هكذا العبارة ويظهر ان هنا نقصا كلمة أو كلمتين وان كان المعنى مفهوماً ا هـ مصححة.

يستروح به أنفاس الطير والأرانب والثعالب في مكانها وغير ذلك. ثم أنظر لم صار ظهر الدابة مسطحاً مبطوحاً على قوائم أربع ألا لتتهيأ للركوب والحمولة. ولم صار حياها بارزاً من ورائها إلا ليتمكن الفحل من ضرابها فإنه لو كان من أسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها. ألا ترى انه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة وقد ذكر أرسطاطاليس في كتاب الحيوان أن حيا الأنثى من الفيلة في أسفل بطنها فإن كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من ضرابها.

فانظر كيف جاء الحيا في الأنثى من الفيلة على خلاف ما هي عليه في غيرها من الأنعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للأمر الذي به قوام النسل.

أنظر إلى هذه البهائم كيف كسيت أجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر ليقيها من البرد وكثير من الآفات وألبست قوائمها الأظلاف والحوافر لتقيها من الحفا فإنها لما كانت بهايم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج كفيت ذلك بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى تجديدها ولا استبدالها. فإما الانسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات (منها) أنه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية (ومنها) أنه يستريح إلى خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء (ومنها) أنه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها (ومنها) أنه يتلذذ تارة بالعري وتارة يتنعم باللباس وكذلك يتخذ بالترفق والصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقي بها قدميه فصار الشعر والوبر يقوم للبهائم مقام الكسوة وأظلافها والحوافر مقام الحذاء.

(فكر في خلقة عجيبة) جعلت في البهائم الوحشية فإنها تواري أنفسها كما تواري الناس موتاهم وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغير ذلك لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلاً فتخفى لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من جيف الانس لصدق واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحاري من أضرب الظباء والمها

والحمر والوعول والأيايل وغير ذلك من الوحوش وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها وضروب الهوام من الحشرات ودواب الأرض وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكراكي والحمام وسباع الطير أجمع فأين هذه كلها لا ترى منها شيئاً ميتاً إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع فما يدل عليه القياس أنها إذا أحست بالموت تكمن في مواضع خفية فتموت فيها فلولا ذلك لأمتلأت الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء فانظر إلى هذه الذي تخلص الناس إليه بالفكر والروية كيف جعل طبعاً في البهائم ليسلم الناس من مغبة ذلك. وأما ما جعل بين الناس عيشه من الأنعام والطير والهوام فلقدرة الناس على نقله والتدبير في دفع أذيته فقد نزع منه ما جعل في الوحوش وهو دليل على أن العالم ليس بإهمال.

تأمل وجه الدابة كيف هو فإنك ترى العينين شاخصتين أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تردي في حفرة وتحرس نفسها وفارسها وترى الفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم لتتمكن من العض على العلف فإنه لو كان فوهاً في مقدم الخطم كمكان الفم من الانسان في مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول شيئاً من الأرض ألا ترى أن الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده فلما لم يكن للدابة يد تتناول به العلف جعل خطمها مشقوقاً من أسفله لتضعه في العلف ثم تقصمه من مقصمه وأعينت بالجحفلة لتقمقم بها ما قرب منها وما بعد فلا يفوتها شيء من طعام وإن شك شاك في الذنب والمنفعة فيه فقلنا بمبلغ علمنا أن لذنب الدابة أسباباً منها أنه بمنزلة الطبق على الدبر والحيا جميعاً يواريها ليسترهما ومنها أن ما بين الدبر ومراق البطن من الدابة وضراً بذا تجتمع عليه الذباب والبعوض والقردان والحلمة فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها على ذلك الموضع ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فإنه لما كان قوامها على الأربع بأسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن على التصرف والتقلب والتلفت كان لها في تحريك الذنب مسرة وراحة. وعسى أن يكون فيه أسباب أخرى يقصر عنهم الوهم ويزدري بها السامع إذا سمعها لأنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة إليها فمن ذلك أن

الدابة ترتطم في الوحل فلا يكون شيء أعون على نهوضها من الأخذ بذنبها .

أنظر إلى مشفر الفيل وما فيه من لطف التدبير فإنه صار يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وايراده إلى جوفه ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكان العنق ذلك الخرطوم الطويل ليسدله فيتناول به حاجته وجعل أجوف لأنه وعاء لما يحمل إلى صدره من طعامه وشرابه وأيضاً فهو سلاحه وبه يعطي ويتناول ويقابل ويصول فمن الذي عوضه مكان العضو الذي عدمه ما يقوم له مقامه إلا الرؤوف بخلقه كيف يأتي مثل هذا بالاهمال كما قال الظلمة .

فإن قلت ما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الانعام أجبنا بمبلغ علمنا فقلنا أن رأس الفيل وأذنيه ونابيه أمر عظيم وثقل ثقيل فلو كان ذلك على عنق لهدها وأوهنها فجعل رأسه ملصقاً لكيلا يناله ما وصفنا وخلق له مكان هذا المشفر ليتناول به غذائه فصار مع عدمه العنق مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته . وليكون اختلاف الخلق أدل على القدرة والتدبير فيتناول العلف بمشرفه وآخر بعنقه وآخر بيده وآخر بمنقاره ويكون لبعض معقفا[1] كالصولجان إلى زوره[2] وآخر معقفا إلى جانبه وآخر عريضاً وآخر كالطبرزين وآخر كالمحلب وذلك على مقدار ما يصلح لمعاشهم في لقط أو صيد وغير ذلك . ومن الحيوان من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع اقتداراً من رب العالمين على خلق ما يريد كيف يريد وهو على كل شيء قدير .

(فكر في خلق الزرافة) واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء أصناف من الحيوان فرأسها وجلدها جلد نمر وعنقها عنق جمل وأظلافها أظلاف بقر حتى أن ناساً زعموا أن نتاجها من فحول شتى وسبب ذلك أن أصنافاً من حيوان البر فيما ذكروا إذا وردت على بعض الماء تنزو على بعض السائمة فتنتج مثل الشخص الذي

---

(١) في القاموس عقفه عطفه .

(٢) الزور وسط الصدر وما ارتفع منه إلى الكتفين أو ملتقى عظام الصدر حيث اجتمعت ا هـ مصححة .

هو كالملتقط من أصناف شتى. وهذا مما لا يصح في القياس لأنه ليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف فلا الفرس تلقح الجمل ولا الجمل يلقح البقر وإنما يكون هذا من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج من بينهما البغل ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع[1] على أنه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما يكون في الزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذي تراه في البغل فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار حتى شحيجه[2] أيضاً كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا دليل على أنه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان كما زعم الزاعمون بل هي خلق عجيب من خلق الله الدالة على قدرته التي لا يعجزه شيء وليعلم أنه خالق أصناف الحيوان كلها بجميع ما شاء منها في الأعضاء في أيها شاء ويفرق بين ما شاء منها في أيها شاء. فأما طول عنقها فالمنفعة لها في ذلك فلأن منشأها ومرعاها كما يذكر أهل الخبرة بها غياطل ذوات الأشجار شاهقة ذاهبة طولاً فهي تحتاج إلى طول العنق لتتناول تلك الأشجار فتقوّت من ثمارها.

(تأمل خلقة القرد) وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه أعني به الرأس والوجه والصدر والمنكبين وكذلك أحشاؤه أيضاً شبيهة بأحشاء الانسان كالذي يصف أرسطاطاليس في كتاب الحيوان وشهد به كتب الطب من ذلك ثم ما خص به من الذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يريد منه ويقبل التأديب ويعرف ما يومي إليه ويحكي كثيراً مما يرى الانسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الانسان في شمائله فمن التدبير في خلقه على ما هو عليه أن يكون عبرة للانسان فيعلم أنه من طينة البهائم وسحنتها إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب فلا يطغى ولا يتمرد على خالقه فإنه لولا فضيلة فضله الله بها في الذهن والعقل كان كبعض البهائم إلا

---

(١) السمع بالكسر ولد الذئب من الضبع قاموس.

(٢) في القاموس شحيج البغل والغراب صوته كشحاجة بالضم اهـ مصححة.

أن في جسم القرد فصولاً أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والناشر والذنب المسبل والشعر المجلل للجسم كله لكن هذا لم يكن بالمانع للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله فالفاصل بينه وبين الانسان بالصحة هي النقص في الذهن.

(وهل سمعت ما يتحدث به عن التنّين) والسحاب فإنه يقال ان السحاب كالموكل به يختطفه حيث ما يقفه كما تخطف حجر المغناطيس الحديد حتى صار لا يطلع رأسه من بطن الأرض[1] خوفاً من السحاب ولا يخرج في الفرط إلا مرة إذا أضحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيم. فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويخطفه إذا وجده إلا ليدفع عن الناس ضره. فإن قلت ولم خلق التنين أصلاً قلنا للتخويف والترهيب ولنتكال في موضع ذلك فهو كالسوط المعلق يخوف به أهل الريب أحياناً للتأديب والموعظة.

(فكر في ضروب من الفطن) جعلت في البهايم لمصلحتها بالطبع والخلقة لا بعقل وروية فقد يقال أن الأيَّل تأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً ويمتنع من شرب الماء خوفاً من أن يدب في جسمه فيقتله. وانه يقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيجاً غالياً ولا يشرب منه حتى يعلم أن السم قد تفرق وأن الذي أكل قد انهضم وحينئذ يشرب.

فانظر إلى ما جعل في طباع هذه البهيمة من الصبر على الظمأ الغالب خوفاً من المضرة في الشرب وذلك مما لا يكاد الانسان العاقل أن يضبطه من نفسه.

ومن الحديث المستفيض أن الثعلب إذا أعوزه الطُعم تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فإذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فأخذها فمن أعان الثعلب العديم العقل والنطق والروية بهذه الحيلة إلا من كان توجه بتوجيه الرزق له من

---

(١) هنا بخط دقيق بدل قوله من بطن الأرض من بطن الماء فهو ملازم لقعر البحر دائماً خوفاً من السحاب الخ وفي حياة الحيوان التنين ضرب من الحيات كأكبر ما يكون منها وهو أيضاً نوع من السمك ا هـ مصححة.

هذا وشبهه فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما يقوي عليه السباع من مساورة الصيد أعين بالذهن والفطنة والاحتيال لمعاشه. ويتحدث عن الدلفين أنه يلتمس صيد الطير فتكون حيلته في ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويشدخه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثير الماء الذي حوله حتى يتبين شخصه فإذا وقعت الطير على السمك الطافي وثب عليها فاصطادها. فانظر إلى هذه الحيلة اللطيفة كيف جعلت طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصلحة. واسمع ما يحدث به عن التمساح من أنه يجمع فتات اللحم الذي يأكله في تضاعيف أسنانه وتدود فيتأذى فيخرج إلى الساحل فيفتح فاه كالميت فيحسبه الطير ميتاً فيسقط على فيه فيلتقط الدود فإذا علم أن فاه قد نظف الطبق فيه على الطير فابتلعه فقالوا (اكافيك مكافأة التمساح).

(تأمل الذرة الحقيرة) هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها في طبقتها فمن أين هذا التقدير والصواب في خلق الذرّة إلا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره وترى الذر يلتقي في طريقه فيتواقف الذرتان كما يسلم الرجل على صاحبه إذا لقيه ويسأله عن حاله وخبره.

(أنظر إلى النمل) واحتشاده في جمع القوت واعداده للشتاء لأنها تستتر فيه فلا تخرج فإنك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى بيتها بمنزلة جماعة من الناس تنقل طعاماً أو غيره بل ترى للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للانسان مثله وتراه يتعاون على النقل كما يتعاون الناس على العمل. ثم انه يعمد الحب فيقطعه كيلا ينبت فيفسد عليه وإن أصابه ندىً أخرجه فيبرّزه حتى يجف ثم لا يتخذ الزبية إلا في نشز من الأرض لكيلا يفيض عليها السيل فيغرقها وكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل بخلقة خلق عليها لمصلحته.

(أنظر إلى هذا الذي يقال له الليث[1]) ويسمى بالسريانية أسد الذباب وما أعطى من الحيلة والرزق في طلب معاشه فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع

---

(١) الليث ضرب من العناكب يصطاد الذباب وهو أصغر من العنكبوت ا هـ حياة الحيوان.

بالقرب منه تركه ملياً حتى كأنه ميت لا حراك به فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيباً رفيقاً حتى يكون بحيث يناله وثبة ثم وثب عليه فأخذه فاشتمل عليه بجسمه كله مخافة أن يثب الذباب فينجو منه وتجده أيضاً يتحرى غمز جناحيه وقبضهما بيديه ورجليه ليبطل فعلهما فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيبر شقه ويحي بذلك منه.

(فأما العنكبوت) فإنه ينسج ذلك النسج شركاً لا يقدر على مثله الآدميون ومصيدة للذباب ثم يكمن في جوفه فإذا نشب فيه الذباب أحال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة ويمصه ويجعله قوتاً فيتعيش بذلك فذلك يحكي صيد الكلاب والفهود وهذا يحكي صيد الأشراك والحبائل فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الانسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها. ولا تزرى بالشيء عندك أن تكون العبرة فيه بالذرة والنملة وما أشبه ذلك فإن المعنى النفيس قد يتمثل بالمثل الحقير ولا يقصر به بذلك كما لا يقصر بالدينار وهو من ذهب أن يوزن بمثقال من الحجر والحديد.

(تأمل جسم الطائر وخلقته) فإنه حين قدّر أن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على ثنتين ومن الأصابع الخمس على الأربع ومن منفذي الزبل والبول على واحد يجمعها. ثم خلق ذا جوّ محدود محس[1] ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيفما توجه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات متان لينهض به للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقة الانسان وخلق له منقار صلباً جاسياً يتناول به طعمه فلا يتشجج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة في الجوف يطحن له

---

(١) هكذا وفيه تحريف ولعل الصواب ذا حوّية محدودب محنى ليسهل عليه الح وبه يستقيم المعنى والحوية كغنية استدارة كل شيء كما في القاموس ا هـ مصححة.

الطعام طحناً فيستغني عن التقدم في مضغه واعتبر ذلـك بأن عجم العنب وغيـره يخرج من أجواف الأنس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير حتى لا يرى له أثر.

ثم جعل أيضاً مما يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فإنه لو كانت الفراخ تنجل في جوفه وتمكث فيه حتى تستحكم وتكبر لأثقلته وعـاقته عن النهوض والطيران.

أفلا ترى كيف يوجد كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذي قدر أن يكون عليه لم صار الطير المسخر السابح في هذا الجو يقعد على الـطير فيحضنه اسبـوعاً واسبوعين ومن الطير من يلقط الطُعم بعد أن يستقر في حوصلته فيغذو به فـراخه لأي معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذي رويـة ولا تفكير في عـاقبة ولا يؤمـل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العز والبر والرفد وبقاء الذكر. فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها هو ولا يفكر فيها وهي دوام النسل وبقاءه.

(انظر إلى الدجـاجة) كيف تهيـج لحضن البيض والتفريـخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر قط بل تنبعث لذلك بعثة فتنفخ وتقاقي وتمنع الديك نفسها وتمتنع من الطعام حتى يجتمع لها البيض وتحضنه وتفرخ فلم كـان ذلك منهـا إلا لإقامـة النسل ولا روية لها ولا فكر في عاقبة.

(فكر في خلق البيضة) وما فيها المـح الأصفر الخـاثر والمـاء الأبيض الرقيق فبعضه لينشو به الفرخ وبعضه ليغتذى به إلى ان تنجاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير فإنه لما كان نشو الفرخ في تلك القشرة المستحصفة التي لا مساغ لشيء إليها جعل معه في جوف البيضـة من الغذاء مـا يكفي به إلى خـروجه منهـا كمن يحتبس في حصن حصين لا يوصل إلى ما فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى خروجه منه.

(فكر في حوصلة الطائر) وما قدرت له فإن مسلك الطعم إلى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطُعم إلا قليلاً قليلاً فلو كان الـطائر لا يلتقط حبـة ثانيـة حتى تصل

الأولى إلى القانصة لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفي طعمه وإنما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى ما أدرك فيها من الطعم بسرعة ثم ينفذ إلى القانصة على مهل. وفي الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب أسهل عليه.

فإن كان اختلاف الألوان والأشكال في الطير إنما يكون من قبل امتزاج الأخلاط واختلاف مقاديرها بالهرج والاهمال. فهذا الوشي الذي تراه في الطواويس والتدرج والدراج على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالأقلام كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف.

تأمل ريش الطير كيف هو فإنك تراه منسوجاً كنسج الثوب من سلوك دقاق قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة ثم ترى ذلك النسج إذا مددته ينفتح قليلاً ولا ينشق ليتداخله الريح فيقل الطائر إذا طار. وترى وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهي القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف ليخف على الطائر فلا يعوقه عن الطيران.

هل رأيت هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت المنفعة له في طول ساقيه فإنه يرعى أكثر ذلك في ضحضاح فتراه يركز على تينك الساقين كأنه زبية فوق مرقب فيتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطاً رفيقاً حتى يتناوله. ولو كان قصير القائمتين كان حين يخطو نحو الصيد ليأخذه يشق بطنه الماء فيثوره ويذعر منه الصيد فيتفرق عنه فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

تأمل ضرباً من التدبير في خلق الطير فإنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق وذلك ليتناول طعامه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع طول العنق بطول المنقار ليزداد المطلب عليه سهولة وله إمكاناً أفلا ترى أنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة.

(أنظر إلى العصافير) كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب وكذلك تجد الرزق كله فسبحان الذي قدره كيف فرقه وبعده ولم يجعله مما لا يقدر عليه إذ جعل بالخلق الحاجة إليه ولم يجعله مبذولاً فينال بالهوينا إذا كان لا صلاح للخلق في ذلك. فإنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم ستكب عليه ولا تقلع عنه حتى تبشم فتهلك وكان الناس سيصيرون بالفراغ والكفاية إلى غاية الأشر حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش. أعلمت ما طُعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلاً كمثل البوم والخفاش والهام فإنه يقال أن معاشها في هذا الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد واليعاسيب وغيرها وذلك أن هذه الضروب مبثوثة في الجو لا يخلو منها موضع واعتبر ذلك بأنك إذا وضعت السراج بالليل في صدَح أو عرصة دار اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير فمن أين يأتي ذلك كله إلا من القرب.

فإن قيل إنه يأتي من الصحارى والبراري قيل له كيف يوافي تلك السرعة من موضع بعيد وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً في دار محفوفة بالدور فيقصد إليه مع أن هذه الضروب ترى عياناً تتهافت على السراج من قرب فيدل ذلك على أنها منتشرة في كل موضع من الجو. وهذه الأصناف من الطير تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو. وأعرف مع ذلك المعنى في خلق الله تعالى هذه الضروب التي عسى أن يظن ظان أنها فضل لا معنى لها. خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع بل هي إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو اذنين ناشرتين وأسنان ووبر وهو يحيض ويحبل ويلد أولاداً ويرضع ويبول ويمشي إذا مشى على أربع وكل هذا خلاف صفة الطير. وهو أيضاً مما يخرج بالليل ويتقوت بما يسري في الجو من الفراش وما أشبهه.

وقد قال قائلون لا طعم للفراش وما أشبهه وقال قائلون لا طعم (المخفاش) وان غذاءه من النسيم وحده وهذا ينكر من وجهين احداهما خروج ما يخرج من الثفل والبول فإن هذا لا يكون إلا من طعم. والأخرى انه ذو أسنان ولو كان لا

يطعم لم يكن للأسنان معنى وليس من الخلقة شيء لا طعم له.

فإما المآرب فيه فموصوفة في كتب الطب حتى ان زبله يدخل في بعض الاكحال ومن أعظم الأرب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه وتصرفها في كل ما شاء لضروب من المصلحة.

تحدث رجل صدوق عن هذا الطير الصغير الذي يقال له ابن نمرة هو الدخل أنه قد كان عشش في بعض الشجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشها شاحية فاغرة فاها لتبتلعه فبينا هو يتقلب ويضطرب في طلب الحيلة للنجاة منها إذ وجد حسكة فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل تلتوي وتنقلب إلى أن ماتت أفرأيت لو لم يُحدّث بهذا الحديث أكان يخطر ببالك أن يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة فاعتبر بها في كثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا عند الحادث يحدث والخبر يسمع.

(أنظر إلى النحل) واحتشاده في صنعة العسل وتهيئة البيوت المسدسة على عمل ما يصلح لصنعته وما يرى في ذلك من دقايق الفطنة التي وصفها المتكلمون في الطبايع فإنك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً وإذا نظرت إلى معمول وجدته شريفاً عظيماً موقعه من الناس وإذا رجعت إلى العامل وجدته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك. ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل للذي طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الانسان.

(أنظر إلى هذا الجراد) ما أضعفه وأقوى فعله فإنك إذا تأملت خلقته رأيته كأضعف الأشياء وإذا ازدلفت عساكره نحو بلدة من البلدان لم يستطع أحد أن يحميها منه. ألا ترى ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله ليحمي بلدة من الجراد لم يقدر على ذلك أفليس ذلك من الدلائل على قدرة الخالق انه يبعث أضنف خلقه على أقوى خلقه فلا يستطيع دفعه.

ثم أنظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع

بالأيدي كصنعة البشر متى كانت تجتمع منه مثل هذه الكثرة وفي كم من سنة كانت ترتفع فاستدلل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء ولا يكبر عليها.

(تأمل خلق السمك) ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه فإنه خلق غير ذي قوايم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة وجعلت له مكان القوايم أجنحة شداد يضرب بها من جانبيه كما يضرب النوتي بالمجاذيف من جانبي السفينة وكسى جسمه جلوداً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات وأعين بفضل حس في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من بعد بعيد فينتجعه وإلا فكيف يعلم به وبموضعه. وقد ذكر ارسطاطاليس أن بين فيه إلى صماخيه منافذ فهو يعب الماء بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح إلى ذلك كما يتروح غيره من الحيوانات التي تنسم هذه النسيم.

فكر في كثرة نسل السمك وما خص به من ذلك فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى عدده كثرة والعلة في ذلك أن يتسع لما يغتذي به من أصناف الحيوانات فإن أكثرها تأكل السمك حتى السباع أيضاً فإنك ترى في حافات الآجام عاكفة على الماء الصافي لتصيد السمك فإذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكل السمك والناس يأكلون السمك والسمك يأكل السمك وكان في البحر ذوات لا طعام لها إلا السمك فالتدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة.

وإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والأصداف التي لا تحصى كثرة ولا يعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث كما قد يقال في صبغ القرمز أنه إنما عرف بأن كلبة كانت تجول على شاطىء البحر بصور فوجدت شيئاً من الذي يسمى الحلزون فأكلته فاختضب حطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً للقز وأشباه هذا مما يقع الناس عليه حالاً بعد حال.

(أنصرف الآن إلى خلق الانسان) وما فيه من الحكمة وما فيه من الدلالة على التدبير والعمل فأول ذلك ما يدبر فيه من الجنين من الرحم حين لا حيلة عنده في تلمس غذاء ولا دفع أذى فإنه يجري إليه من دم أمه ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضوء هاج الطلق بأمه وأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد فإذا ولد صرف ذلك الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثدييها فانقلب إلى ضرب آخر من الغذاء هو أشد موافقة للمولود من الدم أعني اللبن فيوافيه اللبن في وقت حاجته إليه فإنه حين يولد فقد تلمض وحرك شفتيه للرضاع فيجد ثدي أمه كالاداوتين المعلقتين لحاجته فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن رقيق الامعاء حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد عظمه ولحمه طلعت عليه الطواحين التي هي الأسنان ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل اساغته فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه وكان ذلك هو علامة الذكر وعز الرجل الذي يخرج به من حد الصبي وشبه النساء وأن كانت أنثى بقي وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجال لما فيه من دوام النسل.

(وفكر الآن في أمر الانسان) وما يُدَبَّر به في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثله يمكن أن يكون عليه بالإهمال أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن يستبقي في الرحم كالمؤود في الأرض ولو لم يوافه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه المضغ للطعام وأساغته أو يقيم على الرضاع ولا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل ثم يشغل أمه بنفسه عن تربيته ولد غيره ولو لم يكن شعر يخرج في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء فلا يري له جلالة ولا هيبة ولا وقار فمن الذي كان يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب في وقته إلا الذي أنشأه خلقاً بعد إذ لم يكن ثم توكل بمصلحته بعد إذ.

كان ولئن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد نجد في القياس أن يكون العمدة والتقدير يأتي بالخطا والمحال لأنه ضد الإهمال وهذا خلف من القول.

(فكر في أمر الانسان في باب آخر) وهو ولادته حين يولد غبياً غير ذي عقل وفهم فإنه لو كان يولد عاقلاً فاهماً لأنكر العالم عند ولادته حتى يبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لا يعرفه وورد على ما لم ير مثله فاعتبر ذلك بأن من سبي من بلد إلى بلد وهو متحنك عاقل يكون كالواله الحيران ولا يتشرع في تعليم الكلام وقبول الأدب كما يتشرع الذي ينشأ صغيراً. ثم لو كان يولد عاقلاً وجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً ومرضعاً ومعصباً بالخرق ومسجى في المهد على انه لا يستغنى عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد لـه من الحلاوة والموقع في القلوب ومن الرحمة والفرح ما يوجد للطفل فصار المولود يدخل العالم غبياً عـاقلاً عـما فيه الناس فتلقي الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزيد في المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شيء حتى يألف الأشياء ويتمرن عليها فيخرج من حد التأمل لها والحيرة إلى التصرف في الأمور والاضطراب في المعاش.

وفي هذا وجوه أخر فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع تربية الأولاد وما دبر ان يكون للوالدين في الاشتغال به من المصلحة وما تـوجب التربية للآباء على البنين من المكافأة بالبر والعطف عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم ولا الآباء يألفون أبناءهم لأنه كان الأولاد يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون حتى لا يعرف الرجل أباه ولا أمه ولا يعرفه أبوه وأمه ولا يمتنع من نكاح أمه وأخته إذا كان لا يعرفها وأقل ما يكون من ذلك أن يخرج من بطن أمه وهو يعقل فيرى منها ما لا يحل له ولا يحسن به أن يراه.

أوَ لا يرى كيف أقيم كل شيء من الخلقة على غـاية الصـواب وتنكب فيه الخطأ دقيقة وجليلة. وتخبر كتب الطب والطبايـع أن الجنين يخلق من مـاء الذكـر والأنثى جميعاً فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى والأنثى تقذف ماءها في رحمها لا يعدوها ثم يختلطان في الرحم فيكون منهما الجنين بإذن الله وقدرته.

وانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على ما يشاكل ذلك فجعلت للذكر إذا كان يحتاج أن يقذف ماءه في غيره آلة ناشزة تمتد حتى توصل النطفة إلى الرحم وجعلت للأنثى إذا احتاجت إلى أن تشتمل على المائين جميعاً وتحمل الولد حتى يستحكم وعاء قعيراً يصلح لذلك.

فكر في أعضاء البدن أجمع وتقدير كل عضو منها للأرب فيها فاليدان للعلاج والرجلان للسعي والعينان للاهتداء والأذنان للسمع والأنف للشم والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد المتخليص والمنافذ لنفض الفضول والأوعية لحملها والفرج لإقامة النسل. وكذلك جميع الأعضاء إذا تأملتها وجدت الكل منها قد قدّر على صواب وحكمة.

فإن زعمت إن هذا من فعل الطبيعة سألناك عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال أم ليست كذلك فإن أوجبت لها العلم والقدرة فما امتناعك من إثبات الخالق فإن هذه هي صفة الخالق. فإن زعمت أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم وعمد فهو محال لأن أفعالها ما قد ترى من الصواب والحكمة. فعلم أن هذا الفعل للخلاق العظيم وأن الذي سميته طبيعة هي سنته. سببه من خلقته الجارية على ما أجراها عليه[1].

(فكر في وصول الغذاء إلى البدن) وما فيه من التدبير فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطحنه المعدة وتبعث بصفوه إلى الكبد في عروق دقاق وأشجة بينها قد جعلت كالمصفاة للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم أن الكبد تقلبه دماً وتنفذه إلى البدن كله في مجار مهيأة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء حتى يطرد في الأرض كلها وينفذ ما يخرج من الخبث والفضول إلى مغايص قد أعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة

---

(١) هنا في الهامش ما نصه. والطبيعة على قولك تقتضي أما فاعلاً او مفعولاً فإن أردت الفاعل لزم أن تجعلها متقدمة لمفعولاتها وهذا كقولنا في البارىء. وإن أردت مفعولاً فلكل مفعول فاعل فما ينكر أن يكون الله. وان قلت أن الطبيعة والطبايع لم يزالا أتيت بمحال وقلت باثنين قديمين.

الصفراء أجري إلى المرارة التي هي مقرونة بالكبد وما كان من جنس السوداء أجري إلى الطحال وما كان منه من البلة والرطوبة أجري إلى المثانة [تأمل حكمة التدبير] في تدبير تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها وأعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلك الفضول ولا تنتشر في البدن فتسقمه ولو أخذت تمثالاً صغيراً من شبه أو نحاس أو شمع فأردت أن تجعله كبيراً هل كان يمكنك ذلك إلا بأن تكسره وتصوغه من الرأس صياغة أخرى.

أفلا ترى جسم الصبي كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكله وعينه وهيئته لا يتزيد ولا يتنقص وأعجب من هذا تصويره في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد يخرج سوياً مستوياً بجميع ما به قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل والحوامل إلى ما في تركيب أعضائه من العظام واللحم والشحم والمخ والعصب والعروق والغضاريف من دقائق التركيب والتقدير والحكمة. أنظر إلى ما خص به الانسان في خلقه تشريفاً وتفضيلاً له على البهايم فإنه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل فيها ولو كان مكبوباً على وجهه كذوات الأربع لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال. ولهذا المعنى صار الانسان اسمه باليونانية مشتقاً من النظر إلى العلو كما قال قائلون أو من تأمل الأمور العلوية كما قال أفلاطون.

أنظر إلى هذه الحواس التي منها تشرف النفوس على الأشياء كيف جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الأشياء ولم يجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات التي تصيبها من مباشرة العمل والحركة. ولا في الأعضاء التي تجيء وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تلقيها واطلاعها نحو الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء مواضع كان الرأس أهنأ المواضع لها. وقد أحسن في وصف الرأس بعض الحكماء فقال هو صومعة الحواس. من جعل الحواس خمساً إلا من جعل المحسوسات مثل ذلك قدّرها خمساً تلقى خمساً لكيلا تفوت الحواس شيء من المحسوسات.

فإن قلت فلعل في الأجسام محسوسات أخرى ليس تلقاها حواس تدركها

(قلنا) محال أن يكون محسوسات ليس تلقاها حواس تدركها لأنها كانت تكون فضلاً لا معنى له وليس في الخلقة شيء لا معنى له كالذي حكمت به الحكماء وشهدت عليه المحنة. لم خلق البصر إلا ليدرك الألوان والأشكال والأضواء. ولم خلق السمع إلا ليدرك الأصوات فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كانت تكون في الألوان منفعة ولو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها هل كان في الأصوات أرب وكذلك سائر الحواس. ثم هذه كلها أيضاً ترجع متكافئة فإنه لو كان بصر ولم يكن ألوان لم يكن للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن أصوات لم يكن للسمع موضع.

أنظر كيف قدر بعضها تلقاء بعض فجعل لكل حاسة محسوساً تعمل فيه ولكل محسوس حاسة تدركه. وفكر مع هذا في أشياء جعلت متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها كمثل الضياء والهواء فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون المبصر لم يكن البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفي على من صح نظره أن مثل هذا الذي وصفنا من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها تلقاء بعض وتهيئة أشياء أخرى بها تتم الحواس لا يكون إلا بعمد وتقدير.

فكر في الذي عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يبصر موضع قدمه ولا يعرف ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا بين المنظر الحسن والقبيح ولا ينذر بحفرة أن هجم عليها ولا بعدوّ أن يبعد ولا يعرف أن أهوى إليه بسيف ولا يكون له سبيل إلى تعلم شيء من هذه الصناعات كالنجارة والكتابة والصياغة حتى لولا بقاء ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقي. وكذلك من عدم السمع قد يختل في أمور كثيرة فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات واللحون الشجية والمطربة وتعظم المؤنة على الناس حتى يتبرموا به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يكون كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي.

فأما من عدم العقل فإنه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه

البهائم أفلا ترى كيف صارت هذه الجوارح والعقل وسائر الخلال التي بها صلاح الانسان والتي لو فقد منها شيء لعظم ما يناله في ذلك من الخلل فيوافي في خلقه على التمام حتى لا يفقد منها شيئاً ولم كان ذلك لولا أن خلقه بعمد وتدبير.

والقول المجمل أن الصانع جل ثناؤه إذا ثبت أنه حكيم عدل زالت عنه التهمة فيما فعله إذ هو أعرف بمنافع الانسان ومصلحته وعواقب أموره وان الصانع جل عن التمثيل كطبيب حاذق مأمون الخطا يعالج بما فيه مضض وألم ولا ينسب إلى قساوة قلبه ولا إلى جوره واضراره بالعليل ولا إلى الخطأ[1].

فإن قلت ولم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح حتى يناله مثل هذا الخلل قلنا للتأديب والموعظة للواقع ذلك به ولغيره بسببه كما قد يؤدب ملوك الأرض بأشياء التنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد ويستصوب من تدبيرهم. ثم أن الذين بهم هذه البلايا من الثواب في الأخرة إن صبروا وشكروا وأنابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى أنهم لو خيروا بعد البعث لاختاروا أن يردوا إلى البلاء ليزدادوا من الثواب.

(فكر في الأعضاء) التي خلقت أفراداً وأزواجاً وما في ذلك من الصواب والحكمة فالرأس مما خلق فرداً ولم يكن خير أن يكون أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى رأس الانسان رأس آخر كان ثقلاً عليه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان اللسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فإن تكلم من أحدهما كان الأخر معطلاً لا ارب فيه وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً وإن تكلم من أحدهما بغير الذي يتكلم به من الآخر لم يدر السامع بأي ذلك يأخذوا أشباه هذا من الاختلاط. واليدان مما خلق أزواجاً ولم يكن للانسان خير أن يكون له يد واحدة لأن ذلك يخل به فيما يعالج من الأشياء. ألا ترى أن النجار والبناء لو شلت إحدى يديه لم يستطع أن يعالج

---

(١) من قوله والقول المجمل إلى هنا مثبت في الهامش ويظهر أنه من الأصل بعد قوله بعمد وتدبير ا هـ مصححة.

صناعته فإن تكلف ذلك لم يحكمه ولم يبلغ به ما بلغه إذا كان له يدان يتعاونان على العمل.

(فكر في الصوت) وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف وما هي لها من المخارج وأعينت به من الهواء وكيف جعل شيء من الآلات لما خلق له[1] فكر في تهيئة آلات الصوت والكلام في الانسان فالحنجرة كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغم ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين ومن تقضب شفته لم يصح الفاء ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء فما أحسن ما مثل الأولون مخرج الصوت بالمزمار الأعظم فشبهوا الحنجرة بقصبة المزمار وشبهوا الرئة بالزق الذي ينفخ به من تحته ليدخله الريح وشبهوا العضلات التي تقبض على الرئة لخروج الصوت من الحنجرة بالأكف الذي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزمار وشبهوا الشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالأصابع التي تختلف على فم المزمار فيصوغ صفيره ألحاناً غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار للدلالة والتعريف فإن المزمار بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت لأن المزمار صناعي والصوت طبيعي والصناعة هي التي تحكي الطبيعة. ولكنه لما كانت الصناعة أظهروا أعرف عند العامة من الطبيعة صارت أفعال الطبيعة تمثل بأفعال الصناعة ليفهم ويوقف عليها. فإذا كانت الصناعة هي التي تتعجب من اللطف والحكمة فيما يحكي الطبيعة فبالحري أن يتعجب من الطبيعة ولطف أفعالها ولئن كان الإهمال يضعف عما تأتي به الصناعة لهو عما تأتي به الطبيعة أضعف قد أنبأنا عما في هذه الأعضاء من الغناء في صفة الكلام وإقامة الحروف. وفيها مع الذي ذكرنا مآرب أخرى ففي الحنجرة يسلك هذا النسيم إلى الرئة فيروح عن الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وباللسان تذاق الطعوم فيميز بينها ويعرف كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على أساغة الطعام والشراب وبالأسنان يمضغ الطعام فيلين ويسهل ابتلاعه وهي بعد كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما

---

(١) من قوله فكر في الصوت إلى هنا مثبت في الهامش أيضاً.

من داخل الفم فاعتبر ذلك بأنك ترى من سقطت أسنانه مسترخي الشفة مضطربها وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذي يدخل منه بقصد وقدر لا يثج ثجا فيغص به الشارب وينكا في الجوف ثم هما بعد كالباب أو كالطبق على الفم يفتحهما الانسان إذا شاء ويطبقهما إذا شاء وبهما حسن منظر الفم ألا ترى الذي قطع شفتاه قبح منظره غاية.

ففيما وصفنا من هذا بيان أن كل واحد من هذه الأعضاء تنصرف إلى وجوه من المآرب كما تنصرف الأداة الواحدة إلى أعمال شتى وذلك كالفاس يستعمل في عمل النجارة والحفر والقتال وغيرهما من الأعمال. وكذلك الشفة تصلح للتقبيل ولمص الماء وإقامة بعض الحروف وجمع المخارج ودفعها ولغير ذلك.

(أما رأيت الدماغ) إذا كشف عنه كيف تجده قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتمسكه من أن يضطرب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة لتقيه حد الصدمة والصكة تقع بالرأس ثم جلب الجمجمة بالجلد والشعر الذي هو فروة الرأس ليسترها من إفراط الحر والبرد. فمن خص الدماغ بهذا التحصين وقدره هذا التقدير إلا من خلقه فعلم أنه ينبوع الحس والمستحق لكل هذه الحيطة بمنزلتها من البدن ومحل العقل فيه.

من جعل الجفن على العين كالغشاء والاشفار كالاشراج وأولجها في هذا الغار وأظلها بالحجاج وما عليه من الشعر.

من غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاوة وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب يقي ولا يثقل وجعل شغافه في حق يصونه وأمره على الجوارح والحواس فأليه ينتهي ما يؤديه بل من جعله مسكناً لجوهر الروح. من جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والأخر للغذاء وهو المرىء الواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل الرئة فيبتل به. من جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل لكيلا تنحصر الحرارة في الفؤاد فيؤدي إلى التلف.

من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجاً يضمها ويضبطها لكيلا تجري جرياً دائماً فيفسد على الانسان عيشه وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا بل الذي لا يحصى منه أكثر.

لم صارت المعدة عصبانية شديدة إلا أنها قدرت لهضم الطعام الغليظ ولم صارت الكبد رقيقة ناعمة أنها قدرت لقبول صفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة.

لم صار المخ الرقيق محصناً في أنابيب العظام إلا لتحيطه وتصونه. لم صار الدم السيال محصوراً في العروق منزلة الماء في الظروف إلا لتضبطه فلا يغيض. لم صار الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل. لم صار داخل الأذن ملتوياً كهيئة اللولب إلا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي فيه إلى السمع ولتنكسر حمية الريح فلا تنكأ في المسامع كما قال آخرون. لم حمل الانسان على فخذيه هذا اللحم الوثير إلا ليقيه من الأرض فلا يألم من الجلوس عليها كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يحل بينه وبين الأرض حائل.

من جعل الانسان ذكراً وأنثى إلا من خلقه متناسلاً. من جعله متناسلاً إلا من جعله ميتاً. من أعطاه آلات العمل إلا من جعله عاملاً من جعله عاملاً إلا من جعله محتاجاً من ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه من خصه بالفهم إلا من أوجب له الجزاء. من وهب له الحيلة إلا من ملّكه من ملكه الخلق إلا من ألزمه الحجة له الجزاء. من وهب له الحيلة إلا من ملّكه من ملكه الخلق إلا من ألزمه الحجة من يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لا يبلغ مدى شكره تبارك وتعالى لا تحصى نعمه. ذكر أرسطاطاليس في صنعة خلق الانسان ان في الفؤاد ثقباً مواجهة نحو الثقب التي في الرئة سواء ليحمل الريح من الرئة فتروح عن الفؤاد حتى أنه لو اختلف الثقب وتزايل بعضها عن بعض لما وصلت الريح إلى الفؤاد فكان في ذلك هلاك الانسان. افيستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال أولا يجد شاهداً من قلبه يزعه عن هذا القول. لو رأيت فرداً من مصراعي باب فيه كلوب أكنت تتوهم أنه كان هكذا بلا معنى بل كنت ستعلم أنه مصنوع تلقاء فرد

اخر فيه رزة ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة وهكذا تجد الذكر من الحيوان كأنه فرد من زوج قد جعل له فرج مهيء تلقاء فرج الأنثى يلتقيان لما فيه دوام النسل وبقاؤه. فتباً وخيبة لأفيقوروس وأشباهه حين عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها. لو كان فرج الرجل مسترخياً أبداً كيف كان يصل إلى قعر الرحم حتى يقر النطفة فيه. ولو كان منعظاً أبداً كم يكون الرجل يتقلب في الفراش ويمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه ثم كان في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة في كل وقت من النساء والرجال جميعاً فيدعوهم تحريكهما إلى المباضعة وهذا على الأوان يؤديهم إلى الهلاك فقدر أن يكون مسترسلاً في أكثر ذلك لكيلا يبدو للبصر في كل وقت ولا يكون على الرجل فيه مؤنة وجعلت فيه قوة الانتصاب عند الحاجة إلى ذلك لما فيه من دوام النسل وبقائه. أليس من حسن التقدير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع من الدار فهكذا تجد المنفذ المهيأ للخلاء من الانسان في أستر موضع منه فإنه ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل هو مغيب في موضع غامض من البدن يلتقي عليه الفخذان بما عليهما من اللحم فتواريانه فإذا حضرت الحاجة إلى الخلاء وجلس لها الانسان تلك الجلسة ألقى ذلك الموضوع منه منتصباً متهيأ لانحدار الثفل.

(فكر في هذه الطواحن) التي خلقت للانسان كيف جعلت الأسنان منها حداداً لقطع الطعام وهتكه وجعلت الأضراس عراضاً لرضه ومضغه فلم ينقص واحد من الصنفين إذا كان يحتاج إليهما جميعاً.

[تأمل التدبير في خلق الشعر والأظفار] فإنهما إذا كانا مما يطول ويكبر حتى يحتاج إلى تخفيفه أولاً فأولاً جعلا عديمي الحس لكيلا يؤلم الانسان الأخذ منهما ولو كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوجد له حس وألم كان الإنسان من ذلك بين أمرين كريهين أما أن يدع كل واحد منهما يطول حتى يفدخه ويثقل عليه وأما أن يخففه بوجع وألم يناله منه. لو نبت الشعر في العين ألم يكن سيعمى البصر ولو نبت في الفم ألم يكن سينغص على الانسان طعامه وشرابه ولو نبت في باطن الكف ألم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال التي تعمل بالراحة كالمصافحة

وشبهها. ولو نبت على فرج المرأة وعلى عوف الرجل ألم يكن سيفسد على الإنسان لذة الجماع فانظر كيف تنكب بالشعر هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة وأنبته في المواضع التي هو لها زين. ثم ليس هذا في الإنسان فقط بل هو في البهيمة أيضاً فإنك ترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه. أفلا ترى الخلقة كيف تتخلى وجوه الخطأ والمضرة وتقع بوجوه الصواب والمنفعة إن المنانية وأشباههم حين اجتهدوا في عيب الخلقة عابو الشعر النابت في الركب والأبطين والفخذ والعانة وإنما يكون هذا من الرطوبة تدفعها الطبيعة إلى هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع الماء أو لا ترى أن هذه المواضع أستر وأهيأ لقبول لقبول تلك الفضلة من غيرها.

ثم إن هذا بعد حمل الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما في ذلك من المصلحة فإن اهتمامه بتنظيف بدنه وكسح ما يعلوه من الشعر والدرن مما يكسر شرته ويكف عاديته وشغله عن بعض ما يخرجه إليه الفراغ والبطالة.

[فكر في الريق] والمنفعة فيه فإنه جعل يجري دائماً إلى الفم ليبل الحلق واللهوات فلا يجف فإن هذه المواضع لو جفت كان في ذلك هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه يشهد بذلك قول أبقراط الرطوبة مطية الغذاء وقد يجري مثل هذه البلة إلى مواضع أخر من المرة فيكون في ذلك رجاء فعل من الأفعال الطبيعية.

[أعلمت ما في الأطفال من المنفعة في البكاء] فإن من قول الأطباء أن في أدمغتهم رطوبة إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثاً جليلة وإن البكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء وأنت لا تعرف ذلك فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا تعرفها فلا تقصر على الشيء أنه لا منفعة فيه من قبل إنك لا تعرفها فإن كثيراً مما لا تعرفه أنت يعرفه غيرك وكثيراً مما يقصر عنه علم المخلوق يحيط به علم الخالق سبحانه.

طاش الوهم طيشة فقال لو كان بطن الانسان مشقفاً مثل القنا لفتحه

الطبيب إذا شاء فيعاين ما عرض من داء فيه ويدخل يده فيعالج ما أراد إصلاحه منه ألم يكن أصلح من أن يكون مصمتاً محجوباً عن البصر واليد لا الطبيب يعرف ما يعرض فيه إلا بدلالات غامضة كمثل البول والمجسة وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة حتى يكون سبباً للموت، فقيل له لو هذا هكذا كان أول ما فيه أنه كان يسقط على الانسان الوجل من الأمراض وانتظار الموت فيستشعر البقاء والسلامة فيخرجه ذلك إلى العتو والأشر وقساوة القلب كما ذكرنا مراراً. ثم كانت الرطوبات التي في البطن سترشح وتتحلب فيفسد علي الانسان مقعده ومرقده وثياب فضلته وزينته بل كان يفسد عليه عيشه. ثم ان المعدة والكبد والفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الطبيعية المحتبسة في الجوف فلو كان في البطن فروج تنفتح حتى تصل العين إلى رؤيته واليد إلى علاجه لوصل برد الهواء إلى الجوف فباخت الحرارة الطبيعية وبطل عمل الاحشاء وكان في ذلك هلاكه.

أفلا تري أن كل ما تذهب إليه الأوهام سوي ما جاءت به الخلقة خطأ وخطل (فكر في هذه الأفعال الطبيعية) التي جعلت في الانسان تحمل من الطعم والنوم والجماع[1] وما دبر فيها فإنه قد جعل لكل واحد منها في الطباع لنفسه محرك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضي الطعم الذي به حياة البدن وقوامه والكرى يقتضي النوم الذي هو راحة البدن وجموم قواه والشبق يقتضي الجماع الذي يكون به دوام النسل وبقاؤه. فلو كان الانسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يحفزه لذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً لشغل أو كسل حتى ينحل بدنه فيهلك كما قد يحتاج المرء إلى الدواء والعلاج أو شيء مما يصلح بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض أو الموت. وكذلك لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر في حاجته إلى راحة البدن واجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك ويدفعه حتى ينهك بدنه. ولو كان إنما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد

---

(١) هكذا ويظهران في العبارة تحريفاً وهي في كتاب الحكمة في المخلوقات للغزالي هكذا ثم فيها أي انظر فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع. وهي ظاهرة اهـ.

كان غير بعيد من أن يفتر عنه حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل به.

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الانسان وصلاحه بمحرك من نفس الطبيعة يحركه له ويحدوه عليه.

وقد وصفت الأطباء في كتب الطب القوي الأربع التي في البدن وأفعالها فالجاذبة هي التي تتولى قبض الغذاء وإيراده على المعدة. والممسكة هي التي تحبس الطعام ريثما يفعل الطعام فيه فعله. والهاضمة هي التي تطبخه وتستخرج صفوه وتبثه في البدن. والدافعة هي التي تحدر الثفل الفاضل بعد أخذ الهاضمة منه حاجتها. ففكر في تقدير هذه القوى للحاجة إليها والأرب فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة فلولا القوة الجاذبة بم كان الانسان يتحرك لطلب الغذاء الذي به قوام البدن. ولولا الممسكة كيف كان الطعام يلبث في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو به البدن ويسد خلله. ولولا الدافعة بم كان الثفل الذي تخلّفه الهاضمة يندفع ويخرج منه أولاً فأولاً.

أفلا ترى كيف وكلت هذه القوى بالبدن والقيام بما فيه صلاحه فصار البدن بمنزلة دار للملك فيها له حشم وقوّام موكلون بالدار فواحد لاقتضاء حوايج الحشم وإيرادها عليهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لعلاج ذلك ولتهيئة وتفرقته في الحشم وآخر لكسح ما في الدار من الأقذار والأقذاء وإخراجه منها.

فالملك في هذا المثل هو الخلاق العليم مالك العالمين والدار هي البدن والحشم وهي الأعضاء والقوام هم هذه القوى الأربع. ولعلك ترى ذكرنا لهذه القوى وأفعالها بعد الذي وصف في ذلك من كتب الطب فضلاً في القول وترديداً لأمر معروف وليس ذكرنا لهذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الطب ولا مذهبنا فيه ذلك المذهب لأن ذكرها هناك على ما يحتاج إليه في صناعة الطب وتصحيح الأبدان وذكرها ههنا على ما يحتاج إليه في صلاح الدين وشفاء النفوس

وتصحيح الدين كالذي أوضحنا بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها.

تأمل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الانسان أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك أفرأيت لو نقص الانسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من خلل كان سيدخل عليه في أموره إذا لم يكن يحفظ ماله وما عليه وما أخذ وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه وما نفعه وما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق ولو سلكه مراراً لا تحصى ولا يعقل علماً لو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقاً أن ينسلخ من الأنسية إلى البهيمية.

(أنظر إلى النعمة على الانسان) كيف موقع الواحدة منها دون الجميع. وأعجب من هذه النعمة على الانسان في الحفظ النعمة عليه في النسيان فإنه لولاه ما سلا أحد عن مصيبة ولا نقصت له حسرة ولا مات له حقد ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة من سلطان ولا فترة من حاسد أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان هما مختلفان متضادان وجعل له في كل واحد منها ضرب من المصلحة وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين وجعل له في هذه الأشياء المتضادة التي تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة. فكر في هذا الخلق الذي خص به الانسان دون جميع الحيوان أعني الحياء ما أكبر قدره وأعظم غناه فلولا الحياء لم يقر الضيف ولم يوف بالعدات ولم تقض الحوائج ولم ينجز الجميل ولم يتنكب القبيح في شيء من الأشياء حتى أن كثيراً من الأمور المفترضة أيضاً إنما تفعل للحياء فإن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يؤد أمانة ولم يعف عن فاحشة. أفلا ترى كيف وفّى الانسان جميع الخلال التي فيها صلاحه ورجاء أموره.

فكر فيما أنعم الله تعالى به على الانسان في هذا المنطق الذي يعبر به عما في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً. وكذلك الكتاب الذي به تقيد أخبار الماضين

الباقين وأخبار الباقين للآتين وبه تجلد الكتب والعلوم والآداب وبه يعلق الناس ذكر ما يجري بينهم من الحساب والمعاملات فلولا الكتاب انقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم والمعاملات التي تجري بينهم واختل نظام العالم.

ولعلك أن تقول أن الكتاب مما يخلص الناس إليه بالحيلة والفطنة وليس مما أعطيه الانسان في خلقه وطباعه وكذلك الكلام إنما هو شيء يصطلح عليه الناس فيجري بينهم فلذلك ما صارا يختلفان في الأمم المختلفة فلسان هؤلاء غير لسان أولئك وكتاب أولئك غير كتاب هؤلاء والأمور الطبيعية ليس بين الناس فيها اختلاف. فنقول في جواب ذلك أنه وان كان للانسان في الأمرين جميعاً فعل وحيلة فإن الشيء الذي يبلغ ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله تعالى في خلقته فانه لو لم يكن لسان مهيء للكلام وذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلم أبداً. ولو لم يكن له كف وأصابع مهيأة للكتاب لم يكن ليكتب أبداً واعتبر ذلك من البهايم التي لا كلام لها ولا كتاب.

(فكر فيما أعطى الانسان علمه) وما منع منه فإنه أعطى جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه ومما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلايل والشواهد القائمة في الخلق ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس وبر الوالدين وإداء الأمانة ومواساة أهل الخلة وأشباه ذلك مما قد توجد معرفته والإقرار به في الطبع والفطرة في كل أمة. وكذلك أعطى الانسان علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة والغراسة واقتناء الأغنام والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الاسقام والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر وركوب السفن والغوص في البحر وضروب الحيل في صيد الوحوش والطير والسمك والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما فيه صلاح أمر محياه في هذه الدنيا فأعطى كل ما وصفناه من علم ما يصلح به دينه ودنياه ومنع ما سوى ذلك مما ليس من شأنه ولا في طبعه أن يعلمه كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان أيضاً كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض وفي لجج البحار وأقطار العالم وما في قلوب

الناس وما في الأرحام وأشباه ذلك مما حجب عن الناس علمه فإنه وإن كان أناس أدعوا علم هذه الأمور فقد تبطل دعواهم بما يتبين من خطئهم فيما يقضون عليه ويدعون علمه. فانظر كيف أعطى الانسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين لما فيه صلاحه.

(ومما ستر على الانسان علمه مدة حياته) فإنه لو عرف مقدار عمره وكان قصيراً لم يتهن بالعيش مع ترقب الموت بل كان بمنزلة من قد فني ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل منه على أن الذي يدخل على الانسان من فناء العمر أكثر مما يدخله من فناء المال لأن من فقد ماله يؤمل أن يستخلف عليه منه فيسكن إلى ذلك ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس. وإن كان طويل العمر عرف ذلك ووثق بالبقاء فانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره وهذا مذهب لا يرضاه الله سبحانه من العباد ولا يقبله. ألا تري أن العبد لو عمل على أن يسخط مولاه سنة ويرضيه يوماً أو شهراً لم يقبل ذلك منه ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتك ونصحك في كل الأوقات وعلى كل الحالات.

فإن قلت أو ليس قد يقيم الانسان على المعصية حيناً ثم يتوب فيقبل ذلك منه قلنا أن ذلك شيء يكون من الانسان بغلبة له من الشهوات ونزوعه عنها من غير أن يقدره في نفسه ويبني أمره عليه فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة لمعرفة بضعف جوهره فأما من قدّره أمرُه على أن يعصى الله تعالى ما بداله ثم يتوب في آخر ذلك فإنما يحاول خديعة من لا ينخدع بأن يتسلف التلذذ في العاجل ويعد بالتوبة في الآجل لعله لا يفي بما يعد من ذلك فإن النزوع عن الترفه والتلذذ آيس من معاناة التوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن فإنه أمر صعب فكان لا يؤمن على الانسان أن يدافع التوبة حتى يرهقه الموت (أو يعوقه عائق) فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على المرء دين إلى أجل وهو يقدر على قضائه ولا يزال يدافع حتى يحل الأجل وقد نفد المال فيبقى الدين قائماً عليه. فكان خير الأشياء للانسان أن يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت فينكل عن المعاصي ويؤثر

العمل الصالح .

فإن قلت فما هو الآن وقد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا إن وجه التدبير في هذا الباب هو الذي جرى عليه الأمر فيه فإن كان الانسان مع هذا لا يرعوى ولا ينصرف عن المساوىء فإنما ذاك من مرحه وقساوة قلبه لا من خطأ التدبير كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فإن كان المريض مخالفاً للطبيب لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه فلم ينتفع بصفته لم تكن الأساءة في ذلك للطبيب بل للمريض حين لم يقبل ذلك منه. ولئن كان الانسان مع ترقبه الموت كل ساعة لا يمتنع من المعاصي فإنه لو وثق بطول البقاء كان أحرى أن يخرج إلى الكبائر الفظيعة فترقبُ الموت على كل حال خير من الثقة بالبقاء.

ثم ان ترقب الموت وإن كان صنف من الناس ينهون عنه ولا ينتفعون به فقد ينتفع به صنف آخر من الناس فينزعون عن المعاصي ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالأموال والعقد النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء من الانتفاع بهذه الخلة لتضييع أولئك حظهم منها.

(فكر في الأحكام كيف دبر أمرها) فمزج صادقها بكاذبها فإنها لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة بل كانت فضلاً لا معنى لها فصارت تصدق أحياناً لينتفع بهذا الناس في مصلحة يهتدي بها أو مضرة يتحرز منها وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد.

فكر في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من أرب الانسان فالتراب للبناء والحديد للصناعات والخشب للسفن والحجارة للأرحاء والنحاس للأواني والفضة للمعاملة والجواهر للذخر والحبوب للغذاء والثمار للتفكه واللحوم للمآكل والطيور للتلذذ والأدوية للتصحح والدواب للحمولة والحطب للوقود والرماد للكلس والزبل للأرض وكم عسى أن يحصى المحصي من هذا وشبهه.

أفرأيت لو أن رجلاً دخل داراً فنظر إلى خزائن مملوة من كل ما يحتاج إليه

الناس ورأى كل ما فيها مجموعة معدّة لانسان معروفة أكان يتوهم أن هذا يكون بالإهمال من غير عمد فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا في العالم وما أعد فيه من الأشياء.

فكر في أشياء خلقت لمآرب الانسان وما فيها من التدبير فإنه خلق الحب لطعامه وكلف طحنه وعجنه وخبزه وخلق له القطن والوبر لكسوته وكلف بندفه وغزله ونسجه وخلق له الشجر لفواكهه وكلف غرسه وسقيه والقيام عليه وخلقت العقاقير لأدويته وكلف لقطها وخلطها وصنعتها وكذلك تجد الأشياء على هذا المثال. فانظر كيف كفى الخلقة التي لم تكن عنده فيها حيلة وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع الحركة لما له في ذلك من الصلاح لأنه لو كفى هذا كله حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل لما حملته الأرض اشر وبطر وأبلغ ذلك كله به إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه ولو كفى الناس كل ما يحتاجون لما تهنوا بالعيش ولا وجدوا له لذة. ألا ترى أن امرأً لو نزل بقوم فأقام حتى يكفي جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة تبرم بالفراغ ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيء فكيف لو كان طول عمره يكفي لا يحتاج إلى شيء. فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للانسان أن يجعل له فيها موضع شغل لكيلا تبطره البطالة وليكفه الشغل عن تعاطي ما لا يناله ولا خير له فيه أن ناله. قال ابن شبرا في حكمته رأس معاش الانسان الخبز والماء. وهذا كما قال ولكن أنظر كيف دبر الأمر فيهما فإن حاجة الانسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز وذلك أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش والذي يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز فإنه يحتاج إلى الماء لشربه ووضوءه وغسل ثيابه وأوانيه وسقى أنعامه وزروعه فجعل الماء مبذولاً لا يشتري بثمن لتسقط عن الانسان المؤنة في طلبه وتكلفه وجعل الخبز مقدراً لا ينال إلا بالحيلة والحركة ليكون للانسان في ذلك شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والعبث.

أما ترى الصبي يدفع إلى المؤدب وهو طفل لما يكامل ذهنه فيعلم ذلك ليشغل عن اللعب والعبث الذي ربما خشي عليه وعلى أهله المضرة العظيمة وهكذا

الانسان لو خلا من الشغل يخرج من العبث والأشر إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ في جدة ورفاهية العيش وما يخرجه إليه الترفه والكفاية ولو كان الانسان لا يصيبه ألم ولا وجع أكان يرتدع عن الفواحش ويتواضع لله ويعطف على الناس. ألا ترى أنه حين يعرض له وجع تخضّع واستكان ورغب إلى ربه في العافية وبسط يده بالصدقة فلو كان لا يألم من الضرب بم كان السطان يعاقب الدعار ويذل العتاة المردة وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات وبم كان العبيد يذلون لأربابهم ويذعنون لطاعتهم أفليس في هذا توبيخ للمعطلة الذين جحدوا التدبير والمنانية الذين نقموا الألم والوجع.

لو لم يلد من الحيوان إلا ذكور فقط أو أناث فقط ألم يكن سينقطع النسل وتبيد أجناس الحيوان فلم صار بعض الأولاد يأتي ذكر أو بعضها أناثاً إلا ليدوم التناسل ولا ينقطع لو رأيت تمثال انسان مصور في حائط فقال لك قائل أن هذا ظهر من تلقاء نفسه ها هنا لم يصنعه صانع ألم تكن تستهزىء به فكيف ينكر هذا في تمثال كالخيال ولا ينكره في الانسان الحي الناطق. لم صارت أبدان الحيوان وهي تغتذي أبداً لا تنمو أبداً بل تنتهي إلى غاية من النمو ثم تقف لولا التدبير في ذلك فإن من التدبير الحكيم فيها أن يكون أبداً أن كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبر والصغر فصار ينمو حتى ينتهي إلى غاياتها ثم يقف والغذاء مع ذلك قائم لا ينقطع ولو كانت تنمو نمواً دائماً لعظمت أبدانها واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد معروف. ثم كانت أجسام الانس خاصة تستثقل عن المشي والحركة وتجفو عن الصناعات اللطيفة وتعظم المؤنة فيها يحتاج إليه للملبس والمضجع والتكفين فحسم هذا كله بأن جعلت تنمو حتى تنتهي إلى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها.

لم لا يتشابه الانسان واحداً بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك فإنك ترى السرب من الظباء أو القطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر. وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد أثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة. والعلة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحليتهم لما

يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهايم مثل هذا فيحتاج إلى معرفة كل واحد بعينه وحليته ألا ترى أن المتشابه في الطير والوحوش لا يضرهـا شيء وليس كذلك الانسان فإنه ربما تشابه التوأمان تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة عـلى الناس في معاملتهما حتى يعطي أحدهما مال الآخر ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر. وقد يحدث مثل هذا في تشابه الأسماء فضلاً عن تشابه الصور. فمن لطف هذه الدقايق التي لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب إلا من وسعت حكمته كل شيء. لم صار الرجل والمرأة إذا أدركا جميعاً نبت لهما العانة ثم تنبت للرجل اللحية وتتخلف عن المرأة لولا التدبير في ذلك فإنه دبر أن يكون الرجل قيماً ورقيباً على المرأة وتكون المرأة عرساً دخولاً له.

أعطى الرجل اللحية لما له فيها من العز والجلالة والهيبة ومنعت المرأة ليبقى فيها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمباضعة. أفلا ترى الخلقة كيف يتم لها الصواب في الأشياء فتعطى وتمنع على حسب الأرب والمصلحة.

وصف الحكماء بأن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا تقصر عما فيه تمام الشيء في طبقته والمحنة تشهد له بذلك فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الأشياء فلا مجاوزة لها ولا تقصر عنها وهذا ما قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب. فإن أوجبت للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال فقد أقررت بما أنكرت لأن هذه هي صفة الخالق وإن أنكرت أن تكون هذه للطبيعة بدا وجه الحق يهتف بأن الفعل للخلاق العظيم الحكيم.

وقد كانت من القدماء طائفة أنكرت العمد والتدبير في الأشياء وزعموا أن كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس وافيقوروس وأناس من الطبيعيين فكان مما احتجوا بها هذه الآيات التي تولد على مجرى الطبيعة كالانسان الذي يولد ناقصاً يداً أو زائداً اصبعاً أو يولد مشوهـاً مبدل الخلق. قـالوا فهـذا دليل عـلى أن كون الانسان ليس من تعمد ولا تقدير بل لعرض وكيف اتفق أن يكـون. فرد عليهم ارسطاطاليس وغيره من الفلاسفة فقالوا أن الذي يكون بالعرض والاتفاق إنما هو شيء يأتي في الفرط مرة لإعراض تعرض للطبيعة فتزيلها على سبيلها وليس بمنزلة

الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياناً دائماً متتابعاً ونحن نرى أصناف الحيوان تجري على أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس. فأما ما يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس. فأما ما يولد على خلاف ذلك فإنما هو لعلة تكون في الرحم أو في المادة التي منها ينشق الجنين كما قد يعرض في الصناعات حتى تعمد الصانع الصواب في صنعته فيعوق دون ذلك عائق من الفساد في الأداة أو في الآلة التي يعمل بها الشيء وقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا فيأتي الولد ناقصاً أو زائداً أو مشوهاً ويسلم أكثرها فيأتي سوياً لا علة فيه فكما أنه يحدث على بعض أعمال الصناعة لاعراض تعرض فيه ولا يجوز عليها أجمع الإهمال وعدم الصنعة. كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية العايق يدخل عليه لا يوجب على جميعها أن يكون بالعرض والانفاق. وقول القائل في الأشياء إن كونها بالعرض والاتفاق من قبل أن شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة حتى لعرض يعرض له خطأ وجهل.

فإن قلت ولم صار هذا الحدث في الأشياء قلت انه ليس كون الأشياء أيضاً باضطرار من الطبيعة حتى لا يمكن أن يكون سواه كما قال القائلون بل هو بتقدير وعمد من الخالق إذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى منهاج معروف وتزول أحياناً عن ذلك لأعراض تعرض لها فيستدل بذلك على أنها مصرّفة مدبرة فقيرة إلى إرادة الخالق وقدرته في بلوغ غايتها وإتمام عملها.

إتخذ أناس هذه الآفات الحادثة في بعض الأزمان كمثل الوبا واليرقان والبرد والجراد ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير. فيقال في جواب ذلك أنه إن لم يكن خالق مدبر فلم لا يكون أكثر من هذا وأفظع من ذلك أن تقع السماء على الأرض وتهوى الأرض فتذهب سفلاً وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلاً وتجف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء ليشفه وتركد الريح حتى تختمر الأشياء وتفسد ويفيض ماء البحار على الأرض فيغرقها وهذه الآفات التي ذكروا من الوبا والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كل ما في العالم بل تحدث في الأحايين ثم لا

تلبث أن ترفع. أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الآفات الجليلة التي إن حدث شيء عليه منها كان فيه بواره ويلدغ أحياناً بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ثم لا تترك هذه الآفات أن تدوم بل تكشف عنهم عند القنوط منهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة.

قد تنكر المعطلة أيضاً ما أنكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول أن كان للعالم خلاق رؤوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة والقائل بهذا القول يذهب إلى أنه ينبغي أن يكون عيش الانسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر ولو كان هذا هكذا لقد كان الانسان سيخرج من الأشر والعتو إلى ما يصلح له معه دين ولا دنيا كالذي ترى كثيراً من الأمراء المترفين ومن نشأ في الجدة والأمن يمرحون حتى أن أحدهم ينسى نفسه أنه بشر مربوب وأن ضيراً يمسه أو مكروهاً ينزل به وانه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً أو يواسي فقيراً أو يرثي لمبتلي أو يتعطف على مكروب. فإذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيراً مما قد كان غافلاً عنه ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه. والمنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة ويتسخطون المنع من الأطعمة الضارة ويتكرهون الأدب والعمل ويحبون أن يفرغوا اللهو والبطالة ويباحوا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشوء والسيرة والعادة وما تعقبهم الأطعمة الضارة من الادواء والاسقام وما لهم في الأدب من الصلاح وفي الأدوية البشعة من المنفعة وإن شاب ذلك بعض الكراهة. فإن قالوا ولم لم يكن الانسان معصوماً حتى لا يحتاج إلى تلديغه بهذه المكارة قلنا إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا يستحق للثواب عليها. فإن قالوا وما كان يضره ألا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب بعد أن يصير إلى غاية النعم واللذة قلت أعرضوا على امريء صحيح الجسم والعقل أن يجلس منعماً ويكفي كل ما يحتاج إليه بلا سعي واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بل ستجدونه بالقليل عما يناله بالسعي والحركة أشد سروراً واغتباطاً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق. وكذلك نعيم الآخرة إنما يكون لأهله بأن ينالوه بالسعي والاستحقاق له

والنعمة على الانسان مضاعفة بان في هذا الباب أعدله الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل إلى أن ينال ذلك بسعي واستحقاق فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله.

فإن قالوا أو ليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير وان كان لا يستحقه فما الحجة في منع ذلك من رضي أن ينال نعيم الآخرة على هذه الجهة (قلنا) إن هذا باب لو فتح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب والضراوة على الفواحش وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة في باب من أبواب البر لو وثق أنه صائر الى النعيم لا محالة أو من كان يأمن على نفسه وأهله وماله لو أمن الناس والحساب والعقاب فكان ضرر هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل الآخرة ثم كان يستوي الأبرار والفجار في الدنيا والآخرة فيكون في ذلك تعطيلاً للعدل والحكمة معاً وموضعاً للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها.

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس تعم البر والفاجر أيضاً ويبتلي البر ويسلم منها الفاجر فيقولون كيف يجوز هذا في التدبير من الحكيم وما الحجة في ذلك. فنقول في جواب ذلك أن الآفات وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً بلا تمييز فإن الله تعالى يجعل في ذلك صلاحاً للصنفين كليهما. أما الصالحون فلأن الذي لمسهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر. وأما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم ووزعهم عن المعاصي وعن الفواحش. وكذلك يجعل لمن سلم منها من الصنفين صلاحاً في ذلك.

أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح. وأما الفجار فإنهم يعرفون رحمة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن أساء إليهم.

ولعلك تقول أترك هذا في الآفات التي تصيب الناس في أموالهم أرأيت ما يبتلون به في أبدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحريق والسيل والخسف ما الحجة في

ذلك فنقول أن الله تعالى يجعل في هذا أيضاً صلاحاً للصنفين جميعاً أما الأبرار فلماهم في مفارقة هذه الدار من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها. وأما الفجار فلماهم في ذلك من تمحيص أوزارهم وحسمهم عن الازدياد منها.

وجملة القول أن الخالق تعالى يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة فكما انه إذا قلعت الريح شجرة أو قصفت نخلة أخذها الصانع الرفيق فاستعملها إلى ضروب المنافع كذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم فيصرفها أجمع إلى الخير والمنفعة.

فإن قلت ولم يحدث على الناس مثل هذه الأحداث قلنا لكيلا يركنوا إلى طول السلامة فيغلو الفاجر في الركون إلى المعاصي ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تذعنهم وتنبههم على ما فيه رشدهم ولو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية كما غلوا في أول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم.

ومما ينقمه الجاحدون للتدبير في الموت والفناء فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من الآفات فقد ينبغي أن نسوق هذا القول إلى غايته فننظر ما محصوله أفرأيت لو كان كل رجل دخل العالم ويدخله يبقون فلا يموت أحد منهم ألم تكن الأرض ستضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعايش أفليس لو كانوا لا يفنيهم أولاً فأولاً يتنافسون في المساكن والمعاش وحتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيه الدماء وكيف تكون حالتهم لو كانوا يولدون ولا يموتون. هذا إلى ما كان سيغلب عليهم من الحرص والشره وقساوة القلوب فإنهم لو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع أحد بشيء يناله ولا يفرح أحد عن شيء ينيله ولا يفرح عن شيء سيناله. ولا يسألون عن شيء يحدث عليهم ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا.

فإن قالوا أنه كان ينبغي أن ترفع عنهم المضار والأوصاب حتى لا يتمنوا

الموت فلا يتوقوا إليه فقد وصفنا ما كان هذا مخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا.

فإن قالوا أنه كان ينبغي أن لا يتوالدوا كي لا يضيق عليهم المساكن والمعايش قلنا إذاً كانوا يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله ومواهبه في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن واحد لا يتناسلون ولا يتوالدون. فإن قالوا كان يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق إلى انقضاء العالم رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون ذهب موضع الانسان بالقرابات وذوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع تربية الأولاد والسرور بهم ففي هذا دليل على أن ما تذهب إليه الأوهام سوى ما جرى به التدبير خطأ وسفال من الرأي والقول.

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز وضعيف فالقوى يظلم ويغضب والضعيف يُظلم ويسام الخسف والصالح فقير مبتلى والفاسق معافي موسع عليه فمن ركب فاحشة وانتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة فلو كان في هذا العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم وكان الصالح هو المرزوق والطالح هو المحروم وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف والمنتهك للمحارم يعاجل. فنقول في جواب ذلك إن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاختيار والتجربة التي فضل بها الانسان وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقة بما وعد الله منه ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها لكل واحد منها ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أو عقاب حتى كان يخرجهم من حد الأنسية إلى حد البهايم التي لا تعرف ما غاب ولا تعمل إلا على الحاضر وكان يحدث منها أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل الصالحات للرزق والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنما يعفو عن ذلك لترقب عقوبة نازلة تنزل به من ساعة حتى تكون أفعال الناس كلها تجري على الأمر الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين بما عند الله ولا تستحق ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها مع أن هذه الأمور التي ذكرها الغنا والفقر والعافية والبلا ليست بجارية على أفعال

القياس أبداً بل قد تجري أحياناً على القيـاس والأمر المفهـوم فقد نـرى كثيراً من الناس الصالحين يرزقون المال لضرب من التقدير ولكن لا يسبق إلى قلوب الناس أن الفساق هم المرزوقون والأبرار هم المحـرومون فيؤثـرون الفسق على الصـلاح ونرى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى أنفسهم كما عوجـل فرعـون بالغـرق وبنو اسـرائيل بـالتيه وبختنصر بالقتل. وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة وأخر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة لأسباب تخفي على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض أيضاً فلا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما أخروا وتعجيلهم ما عجلوا داخلاً في صواب الرأي والتدبير.

ثم نقول أيضاً أنه كان القياس يوجد والشواهد تشهد بأن للأشيـاء خالقـاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه فإنه لا يصح في القياس أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا لإحدى خلال ثلاث أما عجز وإما جهل وإما شرارة وكل هذا محال في صفة الخالق القديم تعالى ذكره وذلك أن العـاجز لا يستـطيع أن يـأتي بمثل هـذه الخلائق العجيبة الجليلة والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطول بخلقها وإنشائها.

فإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة وإن كنا لا ندرك كنه ذلك التدبير ومجاريه فـإن كثيراً من تـدبير الملوك أيضـاً لا يفهمه العامة ولا تعرف أسبابه لأنه لا يعراف داخلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وجد صواباً قائماً على القياس والمحنة.

لو شككت في قوة بعض الأدوية والأطعمة فتبين لك من وجهين أو ثلاثة أنه حار أو بارد ألم تكن تقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك فما بالـك لا تقضي على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة وأكثر منها ما لا يحصى كثرة. لو كان نصف ما في العالم مشكلاً صوابه لما كان من حزم الرأي وسنة الأدب أن تقضي على العالم بـالإهمال لأنـه لو كـان في النصف الآخر ومـا يظهـر من فيه الصواب والاتقان ما يزع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية فكيف وكل ما فيه إذا

فتش وجد على غاية الصواب حتى انه لا يخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه.

أعلمت ما اسم العالم بلسان اليونانية فإن اسمه جاري المعروف باليونانية فَوْسَموس وتفسير فوسموس الزينة وكان المسمى له بهذا الاسم فيما يزعمون فيثاغوروس الفيلسوف ثم جرى عليه الفلاسفة والناس من بعد.

أفكان الحكماء والفلاسفة يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام مع أنهم لم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان في غاية الحسن والبهاء.

العجب من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ وهم يرون الطبيب يخطىء ويقضون على العالم بالإهمال ولا يرون شيئاً مهملاً. لا تتعجب من الجلف الجافي (دوسي) حين جهل موضع الحكمة في الخلق حتى أرسل لسانه بالذم له ولكن تعجب من المخذول (ماني) الذي ادعى انه أوتي علم الأسرار حيث عمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك وتعالى الحكيم الكريم.

وأعجب من هذين جميعاً المعطلة الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل فلما أعوزهم ذلك خرجوا إلى الجحود والتكذيب قالوا ولم لا يدركه العقل قلنا لأنه فوق مرتبة العقل كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته. فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء لعلمت أن رامياً رمى به وكان الذي أراك البصر من ذلك ذهاب الحجر علواً فإما علمك أن رامياً رمى به وكان الذي أراك البصر من ذلك ذهاب الحجر علواً فأما علمك أن رامياً رمى به فليس من قبل البصر بل من قبل العقل لأن العقل هو الذي يميز فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه أفلا ترى كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوزه فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه.

قالوا فلسنا نعقله إذاً قلنا بلى عقل إقرار وليس عقل إحاطة كما قد يعلم الانسان أن فيه نفساً وهو لا يعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس ومن أمثال ذلك

أيضاً النقطة التي لا جزء لها فإنها تجب في العقل باضطرار من قبل أنه لا بد من أن يكون بدء الخط من نقطة ولا يمكن أن تظهر للحس لأن النقطة الواقعة تحت الحس متجزئة لا محالة. وكذلك يقول أصحاب علم الهندسة أن المثلثة الصحيحة هي التي يوجبها القياس باضطرار فإما المخطوطية فالخطوط الواقع عليها الحس فلا يخلو من أن يدخلها شيء من الخلل وأن اجتهد مجتهد في إقامتها. وعلى حسب هذا نقول إن العقل يعرف الخالق من جهة العبرة والدلالة لا من جهة الحس والأحاطة وبالجملة أنه يعرفه من جهة ما يوجب عليه الإقرار به ولا يعرفه من جهة ما يوجب الاحاطة بصفته.

قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته والعقل اللطيف لا يحيط به (قلنا) إنما يكلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند امرهم ولم يكلفوا الاحاطة به وبصفاته كما أن الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا طويل هو أم قصير وأبيض هو أم أسمر إنما يكلفهم الأذعان لسلطانه والانتهاء إلى امره. الا ترى ان رجلاً لو أتى باب ملك فقال أعرض عليّ نفسك حتى أتقصى معرفتك وإلا لم أسمع لك كان قد أحل بنفسه العقوبة فهكذا القائل انه لا يقر بالخالق حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه.

قالوا أفليس قد نصفه فنقول هو العزيز الحكيم الجواد قلنا كل هذا صفات إقرار واعتراف وتثبيت وليست بصفات إحاطة فإنا نعلم انه حكيم ولا نحيط بكنه ذلك منه. وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السماء ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه بل هو فوق هذه الأمثال ما لا نهاية له لأن الأمثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل إلى معرفته.

قالوا فلم تختلف فيه قلنا لقصر الأوهام عن مدى عظمته وتعديلها إقرارها في طلب معرفته وإنما تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك فيما دونه.

فمن ذلك هذه الشمس التي نراها تطلع على العالم كل يوم ولا نقف على حقيقة أمرها ولذلك كثرت الأقاويل فيها واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها فقال أركمندروس هي فلك أجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع

وقال كسيومانيس هو اجتماع أجزاء نارية يدفعها البخار الرطب. وقال اركسمانيس هو سحابة ملتهبة. وقال فيلاغوس الفيثاغوري هو جسم زجاجي يقبل نارية العالم ويرسل عليها شعاعه وقال الأسطو انقون هو جوهر لطيف يتصعد من البحر وقال أفلاطون هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار وقال أرسطاطاليس هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة.

ثم اختلفوا في شكلها أيضاً فقال اركسمانيس هو بمنزلة صفيحة عريضة وقال الاسطوانقون هي كالكرة المدحرجة وقال أرسطاطاليس مثل ذلك.

وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم انكسمندوس إنها مثل الأرض سواء. وقال انكسيمانس بل هي أقل من ذلك. وقال انكساغورس هي أعظم من الجزيرة العظيمة وقال ابرقليطوس هي مقدار قدم الانسان وقال أصحاب الهندسة هي أضعاف مائة وسبعين مرة من الأرض.

ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها. فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها منكم فكم فبالحري ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم.

قالوا ولم استتر قلنا انه لم يستتر بحيلة تخلص إليها كمن يحتجب عن الناس بالأبواب والستور إنما معنى قولنا أنه استتر انه لطف عن مدى ما يبلغه الأوهام كما لطفت النفس وارتفعت عن ارتفاعها بالبصر.

فإن قلت لم لطف وتعالى كان ذلك خطأ من القول لأنه لا يليق بالذي هو علة كل شيء إلا أن يكون فائقاً لكل شيء متعالياً عن كل شيء. قلنا ان الذي تطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه أولها أن ينظر أموجود هو أم ليس موجوداً والثاني أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث أن ينظر كيف هو وما صفته والرابع لماذا ولاية علة فليس في هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته خلا أنه موجود فقط فإما ما هو وكيف هو فيمتنع عليه كنهه وكمال المعرفة به. وإما لماذا فهو ساقط في صفة الخالق لأنه علة كل شيء وليس شيء بعلته. ثم

ليس علم الانسان بأنه موجود وجب له ان يعلم ما هو وكيف هو كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب له ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة .

قالوا أفرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم قلنا كذلك هو من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والاحاطة به وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب إذا استدل عليه بالدلائل الشافية . وقد قال ارسطاطاليس في الجواب شبيهاً بهذا القول في كتابه الذي سماه ما بعد الطبيعة فإنه وصفه بهذه الصفة فقلل هو قريب بعيد فإنه من جهة كالواضح لا يخفي على أحد ومن جهة كالغامض لا يدركه أحد فكذلك العقل أيضاً ظاهر شواهده ومستتر في ذاته فلا ينكر أحد أن يقول في صانعه وبارئه نحو ما قيل فيه .

فهذا منتهى جميع ما في هذا الكتاب من الدلائل على الخلق والتدبير وهو قليل من كثير وجزء من كل فإما العلم الكامل فعند الخلاق العليم الحكيم له الشكر كثيراً دائماً مباركاً فيه تم الكتاب .

قال كاتبه في آخره ما نصه

وهذا حين أتينا على آخر كتاب الدلائل والاعتبار تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين وكان الفراغ من رقمه في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثة وعشرين بعد الألف ا هـ .

فهرس كتاب

الدلائل والاعتبار

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

أبـو سلـوم المعتـــزلي

أبـو سلـوم المعتـــزلي